صفحة

من تاريخ محمد على

(مؤسس مصر الحديثة)

تأليف

السير شارلس مرى

قنصل انجلترة فى مصر على عهد محمد على وعباس الأول

تعريب

سليم حسن و طه السباعى

الموظفين بوزارة المعارف العمومية

حقوق الطبع محفوظة

١٣ رمضان سنة ١٣٣٧

يطلب من مطبعة المعارف ومكتبتها بالفجالة بمصر

مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر

محمد على باشا الكبير

(عن تاريخ سينا)

الى أبناء وطننا الكريم :

ما زالت الأمم بأحاديث أبطالها مغرمة ولوعة ، وما برحت الشعوب الى أخبار عظمائها شيِّقة نزوعة ؛ وقد أتاح الله لهذه الأمة فى رأس أسرتها الحاكمة بطلاً ممن تضن بمثله الأيام ، ويزدان بقصته تاريخ الأنام . ولكن الذى يدعو الى العجب أن تخلو مكاتبنا العربية من كتاب قائم بذاته يتعرض لهذا الموضوع الشائق ، ويتناول سيرة هذا النابغة العظيم . لذلك ما كدت أعثر على هذه الرسالة ، وأتصفح ما حوت من لذيذ الأنباء وممتع الأخبار ، وأستطلع ما تضمنت من صادق النظرات وصائب الأقوال ، وأتبين منها مبلغ اهتمام الغربيين بسيرة بطلنا الأكبر ، وشدة شغفهم بالوقوف على غوامض أسراره وبواطن أحواله ، حتى اتضح لى مكان الفائدة من نقل هذه الرسالة الى العربيـة . فاقترحت على صديقى الفاضل : المؤرخ المقتدر سليم أفندى حسن أن نقوم بترجمتها ونشرها ؛ فباشرنا العمل على ثقة بأن الكتاب - مع صغر حجمه وضيق نطاقه - سيقع من قلوب المصريين كافة ، موقع الماء من ذى الغلة الصادى . وانَّا لنرجو أن يكون هذا العمل الصغير ، فاتحة الاهتمام بتاريخ ذلك البطل الكبير ؛ حتى تبرز صورته نصب أعيننا فى الموضع اللائق ، وحتى تؤثر سيرته فى نفوسنا الأثر الواجب ✩

طه السباعى

القاهرة فى ١٣ رمضان سنة ١٣٣٧

مقدمة

النــاشر

ولد السير شارلس مرى ، وهو ثانى أنجال الأرل دنمور ، فى الثانى والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٨٠٦ ، وتلقى العلوم فى كلية ايتون وجامعة اكسفورد ، ونال درجته فى الحادية والعشرين من عمره ؛ ثم قضى فى السياحة بضع سنين يتنقل فى أنحاء أوروبا وشمال أمريكا ، وعين بعد ذلك حاجبًا فى حاشية الملكة فيكتوريا ولم تمض الاَّ أشهر قلائل حتى عين قهرمان القصر فى سنة ١٨٣٨ . وهو صاحب مؤلفات جمة ، وكان كثير الاختلاط برجال الأدب، وطالما اختلف الى مائدة صموئيل روجر* حيث كان يلتقى بماكولى* وسيدنى سميث* فى ميادين الحديث والمناظرة

وفى سنة ١٨٤٤ عين المستر مرى سكرتيراً للسفارة فى نابولى ، ثم عين فى سنة ١٨٤٦ قنصلاً عاماً للدولة الانجليزية فى مصر؛ وكان محمد على يومئذٍ لا يزال واليًا على وادي النيل . فكان الأثر العظيم الذي انطبع فى ضميره عن مقدرة ذلك الأمير وأعماله، والرأى الجميل الذى استقر فى نفسه عن حسن سياسته وصواب خطته باعثين له على تدوين هذه الخواطر التى لا تزال الى اليوم عظيمة القيمة والفائدة نظراً الى تعمق صاحبها فى معرفة أخلاق الشرقيين وتبحره فى درس لغات المشرق وتاريخه

وقد عثرنا بين مذكرات المستر مرى على الخبرين التاليين وهما يدلان على أن أساليب محمد على فى الحكم لا تنطبق كل الانطباق على الطرق الحديثة المقبولة : —

«فى مساء اليوم السابع من فبراير سنة ١٨٥٢ دار بينى وبين عباس باشا حديث

---

* جماعة من مشاهير أدباء الانجليز فى القرن التاسع عشر

طويل عن تاريخ اسرته؛ فوقفت منـــه على كثير من الأخبار الغريبة عن أخلاق الأتراك وأحوالهم. وكان سموه يتبسط فى الكلام بلا تحفظ؛ فذكر لى إن أباه طوسون باشا مات مسموماً بأمر محمد على، قائلاً ان هذه حقيقة لايخالجها شك ولا ارتياب. فقلت له انى سمعت بهذه القصة من قبل، بيد انى كنت لا أصدقها على الاطلاق، لعلمى أن طوسون ما فتئ أحب أولاد محمد على الى أبيه

« فأجاب الوالى قائلاً: (نعم لقد كان كذلك زمناً طويلاً، ولكن أباه حسده فى نهاية الأمر على محبـة الجيش اياه وأصبح يرى فى ذلك خطراً على نفسه، فأصدر أمره بأن يسمُّوه. وكان طوسون قد أولم ذات ليلة وليمة عظيمة، دارت فيها المترعات من الكؤوس والراقصات من القيان، فبينما القوم لاهون فى شأنهم، شرب طوسون كاسين من الخمر كان السم قد دس له فيهما، فلم يعتِّم ان شكا دوارا فى رأسه فرقد فى فراشه وفاضت روحه بعد ست ساعات)

« فسألت سموه عما اذا كان قد سمع من الأدلة ما يثبت وقوع هذه الفاجعة بأمر محمد على

« فقال: نعم (عندى على ذلك برهان قاطع. لما توفى طوسون انطلق الناعى بخبره على جناح النعامة الى القاهرة، وبلَّغ النبأ فى الحال الى حاجب محمد على. ولما كان الحاجب يجهل مقاصد سيده، ويخشى سوء العاقبـة أن هو باغته بنعى ولده المحبوب، عمد الى اعلامه بالخبر على سبيل الحذر والاحتراس. فدخل على الوالى فى غرفته وقال:

« مولاى: قد وافانا الساعة خبر عن طوسون باشا،

« فأجفل محمد على وقال: متى كان ذلك، وكيف مات؟، ثم شرع يتظاهر بأشد الحزن ومنتهى الجزع

« واستمر عباس قائلاً : « فكيف استطاع أن يعلم من عبارة الحاجب أن ابنه ، الذى كان فى شرخ الشباب وريعان الصحة ، قد وافته المنية ما لم يكن هو الآمر بقتله ؟ »

« فأجبته معترفاً بأن الدليل قوى راجح وقطعت الحديث فى هذا الشأن ☆

« ولما كنت قد آنست من سموه الرغبة فى المحادثة سألته أن يوقفنى على جلية الأمر فى ذلك السر الغامض : حقيقة نسب ابراهيم وصلته بمحمد على

« فأجابنى سموه قائلاً : أنت تعلم أن ابراهيم لم يكن قط صديقاً لى ، وقد كان وَكْدُ محمد على ودأبه أن يبذر بيننا بذور العداوة والبغضاء ، ولقد حاول ابراهيم أن يقتلنى ، ولكن ذلك لن يمنعنى من قول الحق فى صحة نسبه وصدق بنوته لمحمد على. وقد بلغنى النبأ الحق فى هذا الشأن من عجوز كانت تلوذ بالحريم أيام طفولتى . وكانت مرضعة لأبى وتحبنى حباً جماً ، فأخبرتنى ان محمد على تزوج بامرأته على أنها عذراء ، وأن أول مولود رزقه منها كان بنتاً توفيت وهى طفلة ، وثانى مولود هو ابراهيم . ومن هذه الزوجة رزق أيضاً طوسون واسماعيل ونازلى هانم

« وذكر لى سموه أن محمد على فكر غير مرة فى اغتيال ابراهيم ولا بدع فقد اغتال طوسون وأمر بقتل نازلى أنفة وحمية ولكن عباس أنقذ حياتها بالشفاعة لدى أبيها الحمى الأنف »

وأقل من هذه القصة مذمة وان لم يكن أقل منها دلالة على أخلاق الحاكم الشرقى الغيور على انفاذ ضروب الاصلاح ما يرويه المستر مرى عن محمد على فى موضع آخر من مذكراته حيث يقول :

☆ ذكر الجبرتى هذه القصة على غير هذا الوجه مبرئاً محمد على من هذه التهمة والجبرتى — كما هو معلوم — معاصر لمحمد على وكان معروفاً بالتحامل عليه

«كان بالاسكندرية ضريح لأحد المشايخ يحول دون تنفيـذ مشروع من مشروعات المبانى التى وضعها محمد على . فأراد أن يزيل هذه العقبة من طريقه ، ولكنهُ خشى أن يصادم الجمهور فى عواطفهم الدينية . فخطر بباله تدبير مكَّنهُ من تنفيذ مأربه ، دون أن يحط من كرامة الشيخ ومنزلته . وذلك أنهُ جمع سراً عدداً عظيماً من العمال ، ثم اختار ليلة حالكة الظلام فأمرهم بهدم الضريح وبنائه مرة أخرى فى مكان اكثر ملاءمة من مكانه الأول . وقبل مطلع الفجر كان العمال قد أخرجوا من المدينة ، فلما استيقظ السكان لم يكن لهم حديث الآَّ ما أظهره الولىُّ من الكرامة بنقل ضريحه من حيه الأصلى الى حى آخر»

وقد لبث المستر مرى قنصلاً عاماً لدولة الانجليز فى القطر المصرى سبع سنين وتقلب بعد ذلك فى عدة مناصب سياسية حتى اعتزل العمل فى سنة ١٨٧٤ ، وكان إذ ذاك سفيراً فى لشبونه . وقد توفى فى باريس وهو فى التاسعة والثمانين من عمره . ولسوف يذكره على مدى الأيام كل من أسعده الحظ بصداقته فعرف منهُ تلك المواهب الجمة المتنوعة وتلك الشمائل الرقيقة الخلابة وذلك العطف والمواساة لكل من طلب رفده والتمس معونته ؟

هربرت مكسويل

صفحة
من تاريخ محمد على

فى باكورة القرن التاسع عشر ظهر فى حروب مصر رجل خامل المنصب مغمور الذكر، يجمع بين التجارة والجندية؛ بيد أنه، على فقره المدقع وأصله الغامض، ومع جهله بكل ما تجاوز حياة المعسكر الخشناء وحيل صغار التجار، ما كاد يتقلد زعامة نفر من الجنود حتى أثبت انهُ وُلد للمجد والسيادة، وخلق للامارة والقيادة

والواقع انهُ ما كان بين جماعة العثمانيين والمماليك الذين كانوا يتنازعون يومئذٍ على تراث الفراعنة المحفوف بالمخاطر، من يضارعه فى صفات القائد البارع والسياسى المحنك. فلا عجب ان يصير قائداً عاماً. بل أميراً مطاعاً، ولا بدع أن يهيئ لنفسه من أنقاض الدولة العثمانية واشلائها الممزقة، دولة قوية متماسكة؛ تفوق فى قوتها و بأسها ما شيدته الدول الأوروبية بسلاحها وجاهها على أطلال اليونان القديمة، وما كان ابسلانتى* يطمح عبثاً الى انشائه، بمعونة روسيا، على ضفاف الدانوب

* هو اسكندر ابسلانتى من أسرة يونانية عريقة وكان من أمانيه تحرير بلاد اليونان وقد عينه الباب العالى أميراً على مقاطعة الافلاخ فى رومانيا وظل أميراً من سنة ١٧٧٤ الى سنة ١٨٠٤ ثم خلع بناء على طلب نابليون فهرب الى بطرسبرج وعاد فى سنة ١٨٢١ الى بلاده على رأس جمعية « الهيتاريا » التى كان غرضها استقلال اليونان ولكن الاتراك هزموه وجموعه شر هزيمة فى سنة ١٨٢٢

سار محمد على فى حكم الدولة التى انتشلها من مخالب الفوضى سيرة أبى بكر أو حيدر على* بأساً وشدة ويقظة . وكان مع جهله وجشمه يرى بنفاذ بصيرته ان رغد الرعية ورخاءها مما يزيد فى قوة الحكومة وسلطانها . واذا كان يخطئ أحياناً فى اختيار الوسيلة المؤدية الى غرضه ، فلقد كان يثابر على طلب هذا الغرض بعزم لا يكل وهمة لا تفتر . وأقل ما يقال عنهُ انه وَجد بين يديه فوضى مخوفة فاستخلص منها نظاماً ناقصاً . ولئن كان فى حكمه ظالماً مستبداً ، فلقد يشفع له أنه حمى رعيته من كل ظالم غيره ، ومستبد سواه ، وانهُ أغدق عليهم من نعمة الأمن ما لم يتمتعوا بهِ منذ دهور مديدة . هكذا كان محمد على مؤسس مصر الحديثة ، وقائد من أعظم قادة المسلمين الذين خرجوا الى الوجود منذ وطئ طارق أرض الجزيرة الخضراء ، وأطلق اسمه الخالد على تلك الصخرة القحلاء

وُلد محمد على فى قوله ، وهى بلدة صغيرة من أعمال الروملى ، تجاه جزيرة طاشيوز الذهبيـة ، وكان مولده فى سنة ١٧٦٩ ولكن يوم الميلاد بعينه مجهول . ومن عجائب الاتفاق انهُ فى هذه السنة ذاتها وُلد نابليون بونابرت وولنجتون . وكان أبوه ابراهيم اغا فلاحاً يعتمد فى معاشه على صيد السمك شأن الجانب الأعظم من ساكنى السواحل وعلى قطعة صغيرة من الأرض يستغلها استغلالاً ناقصاً مشوباً بالاهمال كسائر فلاحى الأتراك يومئذ . وكان فضلاً عن ذلك رئيس فئة من الحرس المقدَّمين من

* هو سلطان ميسور من اكبر امارات الهند . ظل ينازع الانجليز ملك الهندستان من سنة ١٧٦١ الى يوم وفاته فى سنة ١٧٨٢ ويعد من أعظم أمراء الهند فى القرن الثامن عشر

القرى المجاورة لحراسة الطرق . ولما توفى ابراهيم اغا ، كان ابنه محمد على لا يزال طفلاً ، فنشأ فى قصر حاكم البلدة التى هى مسقط رأسه ؛ وكان غلاماً برّاق العينين ذكى الفؤاد يتدفق نشاطاً ومرحاً فما لبث ان أصبح ذا حظوة لدى شاربى النراجيل وحاملى الشبكات الذين كانوا يلوذون بقصر الحاكم فيقضون الوقت فى حجراته وأروقته . وكان الفتى يظهر كياسة نادرة ومهارة بارعة فى فض ما ينشأ بينهم من المنازعات على الطبنجات الحلبية المكفّتة والصوارم الدمشقية اللينة . وكان يلم بطرف يسير من القراءة وأقل من ذلك المامه بالكتابة ، كما انه حفظ سورة الفاتحة عن بعض الفقهاء الوقورين الذين كانوا لا يمتازون عنهُ علماً ودراية . وفى ذلك العهد قد حصّل محمد على كل ما أحرزه من زهيد نصيبه فى العلم فانهُ ما لبث ان تولاه بعدئذٍ من المشاغل ما صرفه حتى عن تحصيل تلك المعارف السطحية الطفيفة التى كانت تعد من اللوازم الضرورية للغلام التركى منذ ثمانين عاماً . وكثيرًا ما كان يقول بعد ذلك العهد بزمن طويل «ما قرأت قط من الكتب الاّ وجوه الرجال ، وقلما كنت اخطئُ فى قراءتها »

فى ذلك الوقت أيضاً كان يقيم فى قوله أحد أولئك الفرنسيين المتجولين الذين يوجدون فى معظم الثغور العثمانية على السواحل الشرقية من البحر الأبيض المتوسط ، فتراهم هنالك غادين رائحين ، يجفخون بوطنهم ويرهقون قناصلهم ، ويملؤن آذان السامعين بأحاديث غرورهم وسخافات مشروعاتهم . بيد أنهم أصحاب مرح وصراحة شديدو الافتخار باتخاذ المعارف والأصدقاء من الأتراك وهم أحب أهل اوروبا الى الشرقيين ولعل

السبب فى ذلك انهم أقل من غيرهم تعسفاً وعجرفة ، لهذا تجد العثمانيين الذين هم فى الجملة معروفون بالنفور من الأجانب يسارعون الى مصاحبتهم ومخالطتهم، وتجد كلا الفريقين يرتاح جد الارتياح الى هذه المخالطة ، وان كانت فى حد ذاتها من الغرابة بمكان . اذ الواقع ان التركى ينظر الى الفرنسى بنوع من الكبرياء الممزوج بالرحمة ، والازدراء الملطّف بالعطف ، كما ينظر السيد الى كلبه الصغير الذى يسلّيه بألاعيبه ومراحه ، ولا يضايقه كسائر الكلاب بهريره ونباحه . أما الفرنسى فيعتبر الأتراك شعباً منحطاً متوحشاً لا يزالون فى حاجة الى التنظيم والتهذيب ، وهذا جل ما يتمناه لهم ويرومه . فهو يكد ذهنه فى استنباط التدابير لتنظيمهم واقتراح الوسائل لترقيتهم ، ويا كثرة ما تجد لديه من أمثال هذه التدابير اللذيذة والمقترحات الطريفة . أضف الى ذلك انهُ يرى فى التركى مثالاً غريباً من أمثلة التاريخ الطبيعى ، وكتلة حسنة ينشر عليها ما شاء من النظريات المهلهلة والمبادئ الواهية . وكذلك ترى الفريقين ، على ما بينهما من سوء التفاهم التام ، يتفقان أعجب الاتفاق ويعيشان فى أحسن الوئام

كان الرجل الفرنسى الذى أقام فى قوله منذ ثلاثة أرباع قرن يدعى ليون . وكان أحد صغار التجار، والأرجح انه كان وكيلاً لأحد المحال التجارية فى مرسيليا : المدينة التى قدم منها . فبينا هو يتجول فى أنحاء البلدة الصغيرة اذ عثر على محمد على فأعجب بذكاء الغلام ونشاطه وأشره . فمال اليه بدافع الشفقة والحنان وغمره بفيض الرأفة والعطف ولقنه أسرار التجارة وأفهم رأسه بكل فكرة طريفة وخاطر خلاب عن مجد الأمة الفرنسية

وسؤددها . وقد رسخت هذه الخواطر فى ذهن الغلام وانطبع اثرها فى نفسه طول عمره فلم يطمس معالمها كر الأيام ، بل لبثت نصف قرن وهى واضحة جلية كأول عهدها يوم ارتسمت فى مخيلته . وظل محمد على يستشعر لمواطنى صديقه حباً لا يتزعزع واعجاباً لا يتناقص حتى سقطت مدينة عكا* . ولما انقضى خمسون عاماً على ذلك العهد كان الأمير لا يزال يذكر ما تلقاه على يدى صديقه وهو غلام مغمور الذكر من ضروب الشفقة وعجيب الخواطر ، فانه ما كاد يسمع ان المسيو ليون عاد الى فرنسا خائب الأمل سيئ الحال حتى كتب اليه يدعوه الى القدوم الى مصر حيث ينتظره الحظ المقبل والجد السعيد . ولكن المنية وافت المسيو ليون يوم أزمع الرحيل الى مصر ، فما كان ذلك ليثنى الأمير الكريم عن كرمه ، اذ أرسل الى أخت صديقه التاجر هدية ٤٠٠ جنيه : دليلاً ناصعاً على حسن وفائه وثبات عهده لرفيقه القديم

لا تزال الخرافات والأساطير تجد منبتاً خصيباً وتربة مريعة فى تراجم عظماء الرجال . بيد أنّا لا نرى بأساً من ذكر أحدوثة عن محمد على قبل ميلاده ، وذلك ان أمه ، وهى حامل به ، رأت فى المنام حلماً قصّته على أحد أولئك الدجالين المنتشرين فى الشرق ممن يدعون الكهانة وتأويل الأحلام . فأنبأها ان الجنين الذى يضطرب فى احشائها سيبلغ ذات يوم أرفع مراتب المجد ويتسنم ذروة العلياء . ويقال ان هذه النبوءة أخذت

* كان محمد على قبل سقوط هذه المدينة فى سنة ١٨٤٠ يطمع فى نصرة فرنسا له فى حربه مع الدولة كما منته فلما تغلبت عليه دول الحلفاء ولم تنجده فرنسا فى موقفه الحرج قطع الرجاء من معاضدتها وأصدر أمره الى ابنه ابراهيم باخلاء بلاد الشام

من مخيلتها كل مأخذ ، وانها طالما كانت تكررها على مسامع ولدها ، فما زالت تحرك فى نفسه الطموح عوامل الطمع حتى أثمرت ثمرها ، وحققت وعدها . اذ لا نزاع فى أن الغلام ، بمزاجه الحاد وذكائه العجيب . ما زال يحرص على تحين الفرص لاظهار نفسه واعلاء شأنه ، والحظ — كما تعلم — عروس لا تستعصى قط على الخاطب الجرىء . فما لبث الفتى الآ قليلاً حتى سنحت له فرصة حسنة

أبى سكان قرية فى اقليم قوله دفع ضريبة مفروضة عليهم بدعوى أنه قد سبق جمعها منهم ؛ ولعلهم محقون فى دعواهم . وكانت هذه الضريبة هى ضريبة الخراج الممقوتة وهى جزية يدفعها الرعايا المسيحيون فى الدولة العثمانية ولا تزال مصدراً للمتاعب ومنبعاً للنزاع ، وكانت الرعية تمقتها : أولاً لما يلازمها من معانى المذلة ، وثانياً لما فيها من الأجحاف . وكانت الفكرة السائدة بين الحاكمين والمحكومين ان هذه الضريبة لم تكن فى الأصل الأ جزية فرضت على الشعب المقهور فداء لأرواحه عاماً بعد عام. ولكنها لم تكن فى الحقيقة ونفس الواقع الآ بمثابة بدلية يدفعها الرعايا المسيحيون العثمانيون فى سبيل الانفاق على الجيش الذين هم معفون من الخدمة فيه

وكانت ضريبة الخراج ممقوتة بنوع خاص فى بلاد الروملى ، حيث كان ثلاثة أرباع السكان من المسيحيين ، وكانت أنظمتهم الخاصة تساعدهم أحسن مساعدة على مقاومة الحكومة

لا أظن أن دعائم الفوز تكون خليقة بالثبات وثمار النصر جديرة

بالبقاء ما دام القاهرون والمقهورون مختلفى الديانات . لذلك ترى أنه حينما وفق المسلمون الى اقامة الدين الحنيفى مقام غيره من الأديان ، كما فعلوا فى كثير من الممالك الأسيوية ، ظل السلطان لهم ثابتاً والحكم باقياً الى يومنا هذا . أما حينما عجزوا عن ذلك ، كما وقع لهم فى كل مكان بأوروبا ، فان أركان حكمهم ما زالت مزعزعة ، وثمار فوزهم ما فتئت مهددة . وهكذا كان شأن العثمانيين مع اليونان فانه بعد أن تقوضت أركان الدولة البوزنطية على أثر ما كان بين أواخر ورثة قسطنطين المتعصبين وأعقابه المخرّفين من المنازعات الدينية الحمقاء والخلافات المذهبية الخرقاء ، سمح الفاتحون لليونانيين بالبقاء على دينهم وأذنوا لهم فى اختيار رؤساء أساقفتهم ورخصوا لكل طائفة بانتخاب زعماء من أنفسهم يحسمون ما ينشأ بينهم من المنازعات والخصومات . ولم يحفظ السلطان لنفسه الآحق تعيين البطريق وكان حتى فى هذه الحالة يراعى عواطف الفنار* أدق المراعاة ومتى تعين البطريق كانت له السلطة المطلقة والكلمة النافذة

ولم ينشب اليونانيون ان تصرفوا كل التصرف فى استعمال هذه السلطة الكبيرة ، حتى حولوها عن وجهها الأصلى ، فصار لكل قرية ، حتى أصغر القرى ، قسيس وأوده باشا وكان هؤلاء الأشخاص يؤدون فى الحقيقة وظائف القضاة والحكام ، ويفرغون قصارى جهدهم فى محو كل سلطة سوى سلطتهم ، ويناصبون القضاة والبشوات الأتراك بنوع

---

* هو فى الأصل حى من أحياء القسطنطينية اختص بسكناه من تخلف بها من اليونان بعد افتتاحها على يد محمد الثانى سنة ١٤٥٣ والمقصود من هذا اللفظ فى هذا المقام وفى غيره من هذه الرسالة الجالية اليونانية وبطريقها المقيمون فى عاصمة الدولة

خاص ، فلم تكن قضية من القضايا تحال على ولاة الأمور العثمانيين الاّ في الندرة . وكان الفرد من الرعية يفضّل تحمل أقسى ضروب المظالم من بني طائفته على الاذعان لأخف حكم يصدره عليه أحد الأتراك . وكانوا بوثيق اتحادهم وعظيم مكرهم وخفي دسائسهم وحسن براعتهم في تقديم الرشى وإعمال الدهاء يتمكنون من مقاومة بشواتهم والاستخفاف بصولتهم حتى اذا آنسوا من أحد الحكام صلابة وعناداً ، لم يجدوا صعوبة كبيرة في سبيل عزله بما يأتونه لدى الفنار من ضروب الوشاية وتحريف الحقائق وكان الاتراك ؛ الذين اجتمع فيهم كل ما يتصف به الشعب القاهر من فضائل ورذائل والذين كانوا على فظاظتهم وقساوتهم واستبدادهم أهل صراحة وبساطة في معاملاتهم ، يعجزون عن مغالبة أولئك الدهاة الماكرين والمواربين الخداعين . واذا لم يكن الباشا من القوة بحيث يزدري من تحته من الرعية ومن فوقه من الحكام كان مركزه حرجاً لا يطاق . فان كان قد ورث منصبه عن أبيه ، كما هي العادة ، لم يكن في استطاعته أن يحتاز من الأملاك ما يكفل له السلامة والأمن ، لأن السلطان هو الوارث لجميع الموظفين . ولم يكن بيت من بيوت الولاة يخلو من جواسيس يكتبون على صاحبه كل ما يملك حتى من أدوات المطبخ والاسطبل . ولم يكن في استطاعة البشوات أن يجمعوا الثروة من طريق التجارة لأنهم كانوا يجهلون حتى أبسط مبادئها ، ولا غرو فالسيد التركي ارستقراطي بطبيعته . فاذا اعتبرت مع ذلك انه كان من جهة مضطراً الى أشباع جشع ولاة الامور في الاستانة بالهدايا السنية آناً بعد آن والاّ وافاه خلفه حاملاً عهد التعيين

وحبل المشنقة ، وانه كان من الجهـة الأخرى مضطراً الى اخماد أنفاس رعاياه المشاغبين حتى لا يجدوا أدنى فرصة للتذمر والاّ أصبح مركزه مهدداً وربما أضاع حياته مع ضياع مركزه : نقول اذا اعتبر القارئ كل ذلك تبين مبلغ الصعوبة التي كان يعانيها الباشا فى ارضاء كلا الفريقين . فلا بدع أن ينقلب اما ظالماً وحشاً غشوماً يثور فى وجه سلطانه متى حاول عزله من منصبه ، واما جباناً مستضعفاً جامداً لا يعدو أن يكون آلة وألعوبة فى أيدى زعماء رعيته

غير مستبعد فى الظروف المعتادة أن يعمد حاكم قوله ، وقد رأى من رعيته الامتناع من دفع الضريبة ، الى الكف عن مطالبتهم بها سواء كانوا محقين فى امتناعهم أو غير محقين ، اذ كان هذا هو الطريق المضمونه والسبيل المأمون لحاكم صغير الشأن مثله ، وكان حسبه أن يقبض على بعض المتسكعين والمتشردين من باب الرسميات فلا ينشبون أن يفلتوا من السجن بعد ساعات قلائل ، ثم يتقدم القسيس وأوده باشا ، فيتكلمان فى الأمر طويلاً . وتقرّب هدية من الحملان ، وربما قدّمت رشوة من المال الى بعض المقربين فى قصر الحاكم ، وبذلك يقضى الأمر وينفض المشكل. ولكن الذى حدث فى هذه المرة ان الحاكم كان فى حاجة ماسة فكان قد عقد عزمه على استيفاء الضريبة عادلة كانت أو غير عادلة

فبينا هو يجيل الرأى فى أى الوسائل يتخذ تقدم اليه محمد على عارضاً عليه خدمته ومصرحاً ، بذلك الحماس الصبيانى القليل الاكتراث للعواقب، أنه يستطيع فى الحال اخضاع العصاة من القرويين وردهم الى صوابهم .

فلما سمع الحاكم هذا التصريح من الفتى الفخور دهش وسر فى آن واحد، واذ كان قد أعيته الحيل أمر بوضع ثلة من الجند تحت تصرف محمد على، وأجاز له أن يفعل كما شاء

وقد امتاز مسلك محمد على فى هـذه الحادثة بكل ما يروى عن الفاتحين المظفرين والقواد الموفقين من الهمة والمضاء فى أول ما يقع لهم من الحوادث . كان مسلكه جريئاً غريباً مملوءاً بالدهاء، كما كان عنواناً بيناً ومثالاً جلياً لما كان عليه الحكم التركى حينئذ فى بلاد الروملى : ذلك الحكم الذى حوّل جنة ضاحكة من أنضر جنات الأرض الى فلاة موحشة للثعالب والذئاب ، والذى أطلق يد الخراب فى تلك المدائن العامرة الزهراء التى كانت قرة عين هدريان[1] ومراد الأول حتى نبت العشب فى شوارعها الجميلة وحتى نسى الخلف ما شيد السلف على ضفاف البسفور من القصور الباذخة ، والذى جعل الانتقام واللصوصية أحب الأعمال وأشرف المهن لدى اعقاب أولئك التراقيين الذين كانت روما تفتخر بشجاعتهم، والذين كافحوا تحت قيادة بليساريوس[2] وفوكاس[3] عن الامبراطورية العظيمة فى ابان مجدها الراحل ، وعزها الآفل ، والذين أظهروا العجب من الوفاء والولاء بالتفافهم حول أواخر من قبض على صولجان قسطنين من أولئك

(١) أحد الاباطرة الرومانيين (١١٧ — ١٣٨ م) كان مشترعاً مشهوراً وادارياً بارعاً

(٢) اكبر قواد الامبراطور جوستنيان عاش فى القرن السادس وانتصر على الفرس والفندال والقوط

(٣) أحد أباطرة الرومان حكم فى بداية القرن السابع وكان طاغية جباراً خلعه عن عرش المملكة هرقل بعد كفاح شديد ثم قتله ومثل به فى سنة ٦١٠

الأمراء الضعاف العاجزين كأمثال ليو الأرمنى وميخائيل التمتام وزو الفاجر ورومانوس الشرير *

لم تكن المهمة التى تطوع لها محمد على بالأمر الهين المأمون اذ لو كان العصاة قد شعروا بأيسر حركة من حركاته لأعدوا عدتهم فتربصوا له وراء الأشجار والأحجار، واصطادوا كل فرد من أفراد جماعته الصغيرة ببنادقهم الصدئة الطويلة. وهبْ انهم أخفقوا فى ذلك فلقد كان من أسهل الأمور على زعمائهم وقادتهم أن يبادروا الى الفرار قبل قدومه فيختبئوا حيث لا يعرف مكامنهم سواهم. وعندئذٍ كان محمد على لا يجد أمامه غير نفر قليل من الشيوخ والعجائز يئنون فى منازلهم المهجورة وقد تركوا هنالك عمداً لتضليله واخبار أهلهم بأنبائه. فلم يكن لينفعه فى مثل هذا الموقف غير الحذر والكتمان وهما من الصفات التى قلما تتفق مع الشجاعة والمضاء والإقدام ولكنهُ قد حاز هذه الخصال جميعاً

ظهر محمد على بغتة فى احدى القرى العاصية فدخل المسجد وتشاغل بالصلاة، وفى اثناء ذلك كان قد أرسل فى طلب أربعة من زعماء القرية لمخاطبتهم فى بعض الشؤون المعتادة، واذ كانوا لا يرتابون فى الأمر حضروا على الفور، فقبض عليهم فى الحال وأشخصهم الى قوله مكبلين بالسلاسل، ثم أخرس أهل القرية وأسكتهم عن الصياح واللجب، مهدداً اياهم باعدام رهائنه اذا هم حاولوا التعرُّض له بحال من الأحوال

---

* كل هؤلاء من أباطرة الرومان الذين تولوا الحكم فى أواخر أيام تلك الامبراطورية العظيمة وهم يضرب المثل فى الضعف وسوء الادارة

على أثر ذلك دفع الخراج فسرّ الحاكم من هذا الجابى الموفق ورقاه الى رتبة ضابط فى حرسه ولم يمضِ الاّ قليل حتى توفى قائد هذا الحرس تخلفه الضابط، وأمر الحاكم بتزويج محمد على من أرملة القائد وكانت احدى قريباته . وقد صارت هذه السيدة أم الأسرة الحاكمة الآن فى مصر

والظاهر ان محمد على كان فى أول عهده بالحياة الزوجية صارفاً جل اهتمامه الى التجارة، وان كان لا يزال محتفظاً بمركزه فى قصر الحاكم . ويقال انه كان يتجر فى نوع من الدخان الخشن المشهورة به سلانيك . وكان أصحاب هذه التجارة يمارسون فيها كثيرًا من ضروب الغش والاحتيال أهمها خلط الدخان بروث الخيل وحتات لحاء بعض الأشجار

فى سنة ١٧٩٨، لما شاهد الباب العالى من تقدم الفرنسيين فى مصر ما أزعجه، صمم على محاربتهم واخراجهم من وادى النيل بحد السيف . فكان القبطان باشا ينتظر احتشاد المجندين فى طرق مارموريس، وكانت مدينة قوله قد دعيت الى تقديم قسطها من الأجناد . فى تلك اللحظة كان مركز التحول فى حظ محمد على وفى تلك اللحظة كان ابتداء صعوده فى مطالع السعود . وذلك ان الحاكم، لحرصه على مرضاة ولاة الأمور فى الاستانة، قدم للجيش ثلاثمائة رجل كاملى السلاح والعدة . وأمّر عليهم ابنه وكان شاباً يدعى على أغا وجعل محمد على نائباً له ومشيرًا . بيد ان على أغا لم يلبث ان تولاه الضجر من رحلته، لما كابده من وعثاء السفر فى البحر ومن ضروب الحرمان فى بوقير* فجعل يحن الى وطنه ثم ترك

* جرت فى هذا المكان موقعة بين الاتراك والفرنسيين أسفرت عن انهزام الفريق الاول وكان ذلك فى سنة ١٧٩٩ م وفى هذه الموقعة أشرف محمد على على الغرق لولا أن قيض الله له السير سدنى سمث فانتشله من الماء بيده وأنزله فى سفينته

الجيش وغادر جنوده تحت امرة محمد على الذى رقى نفسه ، كما كانت العادة يومئذٍ ، الى رتبة بمباشى

سلك محمد على فى هذه الحرب مسلك الشجاع المقدام ؛ ويقال انهُ أظهر كثيرًا من الحكمة واصالة الرأى وفضيلة الاحترام لرؤسائه ، وهي صفات نادرة بين سائر الناس ولا سيما بين غوغاء الباشبزق الذين كانوا يؤلفون الجيش التركى فى تلك الأيام . وكان أول ما أظهر نفسه فى واقعة الرحمانية بانتصاره على القائد الفرنسي « لاجرانج » وكان القبطان باشا قد انتدبه لقيادة هجمة ليلية على حصن يحتاه الفرنسيون ، فلولا مسارعتهم الى اخلائه لتورطوا فى الفخ الذى كان محمد على قد نصبه لهم بخطته الجريئة الختالة . وبينما كان ملحقاً مع فرقته بجزء من الجيش البريطانى أظهر من فرط الشجاعة وحسن السيرة ما أطاق لسان القائد العام بالثناء عليه والاعجاب بهِ

وقد أسفرت الحملة عن نجاح تام فان القائد الباسل كليبر كان قد قتل غيلة ، فلما خلفه القائد مينو أضاع بعجزه كل ما أحرزه نابليون بانتصاراته فى مصر . وكذلك أخرج الفرنسيون من البلاد بأسرها ، وقضى على شطر من تلك الخطة العظيمة التى وضعها بونابرت بالاتفاق مع سلطان ميسور للقضاء على سلطة الانجليز فى الهند*

---

* كان بونابرت قد تآمر مع تبو صاحب آخر سلاطين ميسور (١٧٤٩ – ١٧٩٩م) على أن يثور هذا فى وجه الانجليز متى وطأ نابليون أرض مصر وكان فى ميسور جيش فرنسى يشد أزر أميرها ولكن الانجليز تمكنوا من التغلب على الأمير الهندى فتمزقت جموعه وفشلت المآمرة

عند ختام هذه الحرب الجمة الحوادث كان محمد على قد ارتقى الى رتبة أمير لواء، وكان أمير البحر الأعظم قد أثنى عليه لدى خسرو باشا والى مصر، وأوصى به خيراً، فاستقبله هذا أحسن استقبال. بيد ان الوقت كان قد حان لبلوغ محمد على ذلك المركز الذى يجعله فوق رعاية الرجال أو دونها ولا غرو فالذى يطمح الى المعالى خليق ان يسير فى طلبها وحده. وكان سخط الجنود الأتراك واستياؤهم من تأخير مرتباتهم وجنوحهم الى التمرد بدافع طباعهم، كل هـذا قد أفسح ميداناً واسعاً لذوى المطامع الجامحة فصمم أمير اللواء على الالقاء بنفسه فى حومة هذا الميدان وقد فعل ذلك والفرصة له متهيئة وأسباب النجاح مواتية. فانه كان كسائر القواد المظفرين محبوباً بين عساكره، قد اكتسب ولاءهم واخلاصهم بأخلاقه الخشنة الساذجة وفكاهاته الحاضرة وشجاعته النادرة. وكانوا يعدونه حامياً لحقوقهم من عسف القواد الذين كانوا يختلسون مرتباتهم ومأمورى التعيينات الذين كانوا يبيعون جراياتهم. وكانوا يختارونه مدافعاً عنهم ولساناً لهم فى جميع المواقف والمواطن، ويرون فيه الوسيط الوحيد بينهم وبين ولاة الأمور. وكان يحرص أبداً على التظاهر بالاهتمام بصلاح شئونهم وحسن حالهم؛ حتى تمكن بهذه الوسائل ان يجعل لشخصه نفوذاً عظيماً ومكانة رفيعة. ولا بدع فان ذهنه الثاقب ذلك الذى كان لكل ما وافق مصلحته شديد التنبه عجيب الذكاء قد أبصر بلمحة واحدة عظيم الفائدة التى هو جدير ان يجنيها من ولاء الجيش ومحبته فى تلك الأزمان المضطربة العصيبة

فغير عجيب ان تكون تصرفاته قد أزعجت خسرو باشا أشد الازعاج

حتى اندفع هذا الى ارتكاب هفوة عظيمة شأن اكثر الذين يتولاهم الرعب ويأخذ منهم الوجل ، وذلك انهُ أرسل الى القائد المحبوب يتوعده ويهدده ، فلم ينشب هذا الوعيد ان أطلق الثورة من عقالها ، اذ أعلن الجنود عزمهم على حماية محمد على من غضب الباشا ، وما هى الآ هنيهة حتى انقلب مسلكهم من موقف الدفاع الى موقف الاعتداء . وبعد كفاح قصير نزعت أزمة الحكم من خسرو باشا ومن خلفه خورشيد وفى أول ابريل سنة ١٨٠٦ صدر الفرمان الهمايونى بتنصيب محمد على والياً على مصر بعد ان كان قد خلع نائبي السلطان على وادى النيل مرتين . وكان عمره يومئذ سبعة وثلاثين عاماً

وقر القرار على أن تكون حفلة التولية مصحوبة بأعظم مظاهر الأبهة ؛ فحضر من القسطنطينية سبعون من التتر يحملون شارات الملك وشعارات الامارة الى اكبر أمير فى الدولة . فساروا يتقدمون كبير حجاب السلطان الذى كان يحمل الفرمان الهمايونى مع ما هو معتاد من الهدايا وخلعة الشرف ؛ غير ان الباب العالى شدد الأوامر على الوالى الجديد بأن لا يجمع شيئاً من الاعانات ولا ان يفرض على الأهلين ضرائب غير عادية

وان فى هـذا الأمر لشاهداً طريفاً من شواهد الاستنتاج ، فان محمد على كان قد قدَّم رشوة كبيرة لاستصدار قرار رسمى من السلطان بتوليته . وكان يتظاهر فى اثناء ذلك بعدم الاكتراث وقلة الاهتمام سياسةً منهُ ودهاء ولبث شهرين ممتنعاً عن استعمال السلطة العليا التى قدَّمها اليه كبار المشايخ . بيد انه كان فى الواقع الآمر الناهى والسيد المطاع ؛ ولا غرو

فقد اختاره الجيش باجماع الآراء؛ وما كان السلطان بكل ما أوتى من حول وطول ليستطيع خلعه

كانت حالة الدولة العثمانية فى ذلك العهد من البؤس والشقاء بحيث يعجز القلم عن تصويرها والعقل عن تصورها، اذ كانت فى أبان التحول من طور الى طور، قد عمها الاضطراب والارتباك والابهام، فالنظام القديم يتلاشى فى كل مكان والنظام الجديد لم يخرج بعد الى الوجود. وكانت الاصلاحات الواسعة التى أقرها محمود الثانى كأضغاث الأحلام، فالألقاب الضخمة والمراسم الفخمة كانت لا تزال باقية: دليلاً على أن وارث يلدرم[1] وسليمان القانونى لا ينفك الحاكم المطلق لذلك الملك الكبير الذى ورثه عن أسلافه، وأن كبار البشوات انهم الا أتباعه وعماله. بيد أنه لم يكن فى الواقع الا ألعوبة وخيالاً يرهقه بين جدران قصره الانكشارية ورجال الدين، ويخونه وزراؤه، ويتمرد عليه جنوده. وما كان مثل مصطفى الرابع فى عرشه القلق الا كمثل أعقاب أرنجزيب[2] اذ كان راجات بنارس ونوابات اوده وبنغالة يستخفون بصولة الضعاف العاجزين من أخلاف المغول الاعظم فى دهلى فينظرون اليهم بنوع من الاحترام الهازئ والاحتقار الصادق. بل لقد كان آل تيمورلنك أثناء تلك الفوضى العميمة والاضطراب المتفشى فى بلاد الهند أحسن حالاً وأثبت قدماً من آل عثمان فى أوائل القرن الحالى

(١) كلمة تركية معناها الصاعقة وكانت تطلق على بايزيد الاول اشارة الى شدة بأسه وبطشه

(٢) مملكة المغول الاعظم أسسها فى الهند جنجيزخان سنة ١٢٠٦ — ١٢٢٧ م ثم سقطت وقامت ثانية على يد تمرلين سنة ١٣٧٠ — ١٤٠٧ م ثم تدهورت ونهضت مرة أخرى فى أيام باهور أحد اخلاف تمرلين سنة ١٥٠٥ — ١٥٣٠ م وبلغت هذه المملكة أقصى عزها ومجدها فى عهد أرنجزيب سنة ١٦٥٩ — ١٧٠٧ م وبعد انقضاء مدته أخذت فى التدهور السريع

وكان اليونان لايزالون شاهرين على الحكومة سيف العصيان وان كان زعماؤهم وقادتهم يتبؤون فى القسطنطينية أرفع المراتب ويتسنمون أشرف الدرجات . وكانوا هم القابضون على أزمة التجارة بأسرها والحائزون لموارد الثروة بأجمعها ، كما كانوا هم المحرزون لكل ما ينفع هنالك من علم وذكاء ومعرفة. ولم يكن فى استطاعة أحد الاتراك ، مهما عظم سلطانه، أن يقاوم وهو آمن على نفسه ، دسائس الفنار ومكايده . والواقع ان بطريق اليونان كان أبلغ نفوذاً وأشد صولة من شيخ الاسلام نفسه . وكانت ولايات الدانوب الغنية فى حوزة جماعة من اليونان، كما كانت القيادة فى الشئون العسكرية .وكولة الى طائفة منهم أو من المنافقين المتظاهرين بالاسلام ممن لا يوثق بعهدهم ولايؤمن بقولهم وكثيراً ما كان هؤلاء ينفثون الغش والخيانة فى آذان قواد الجيش وامراء الاسطول . وكانت بلاد الجزائر وتونس، تلك الاقطار الزاهرة التى افتتحها بربروسه ، قد أصبحت فى شبه استقلال . وجملة القول ان علاقة الباشوات الكبار بالسلطان كانت أشبه بعلاقة الاقوياء من حكام الاقطاعات بالضعاف من أصحاب التيجان فى القرون الوسطى

وكان الباشوات فى بعض الاماكن – كما فى يانينا وبغداد يظهرون بمظهر الامراء المستقلين، فيستقبلون السفراء من الدول الاجنبية ويجاهرون بعصيان أوامر السلطان .وفى بوخارست وياسى كان الحكام كسادتهم عبارة عن ألاعيب وخيالات . وفى دمشق وعكا استقل بالأمر احمد الجزار وكان جندياً بسيطاً من أهل البوسنه قاسى القلب عظيم الدهاء فكان

يحمل على رعيته المظلومة من فادح الاعباء ما لا يطاق . ولم يكن للباب العالى الا سلطة اسمية فى كردستان حيث كانت القبائل الكثيرة بقيادة زعمائها البواسل الشجعان لا تزال فى حروب متواصلة ومنازعات متلاحقة ، وهم فى ذلك محتفظون بحريتهم فى جبالهم الشاهقة ومعاقلهم المنيعة . أما فى بلاد العرب فان الوهابيين – أعداء كل من السنيين والشيعة – كانوا قد استقلوا بالأمر وانفردوا بالسلطة . وكان زعماء لبنان يتنازعون الأمر فيما بينهم بلا وازع ولا رادع . وكان المسيحيون فى البوسنة قد شهروا السيف وثاروا فى وجه الذين كانوا يسومونهم ما لا يحتمل من المظالم. وكان الالبانيون أولئك الذين لم تتمكن الحكومة قط من اخضاعهم لأمرها كل الاخضاع لا يزالون يعيشون فى البلاد سطواً ومشاغبة وفساداً أو يؤجرون أيديهم السفاحة لمن يدفع أرفع الاثمان . وكان الصربيون قد أعلنوا محالفتهم لروسيا، ووالى ويدين قد شق على السلطان عصا الطاعة ، وانحدرت على كرمانيا جموع كثيفة من (الزيبك) تجتاح تلك الولاية الجميلة . وكانت العصابات اليونانية تخرج من اتوس واوليمبس فتنتشر فى الطرق وتعمل السلب والنهب فى المدائن والقرى . وكان الحكام الاتراك فى المورة وجزائر الأرخبيل لا يأمنون على أنفسهم الا بين جدران قلاعهم . وفى جزيرة « شيو » كان التركى لايخرج الى الشارع الا ويصيبه بعض المسبة والأذى. وكانت سفن القراصنة تبحر من جزيرتى ساموس وكوس فتمخر فى بحر ايجه آمنة مطمئنة، كما كانت الحراقات اليونانية تهجم على مراسى الاسطول التركى فتحرق أحسن بوارجه . وكان قليل من الباشاوات الاتراك يبسطون نفوذهم على كبار

المدن القريبة من عاصمة السلطنة ، أما اذا ابتعد المرء عن أسوار أزمير أو بروسا ولو مسافة ميل واحد فانه يصبح فى خطر من اختطافه الى الجبال واعتقاله هنالك حتى يفادى بالمال . ولقد كان من أيسر الأمور على أشق المجرمين وأجرأ العصاة أن يبتاع العفو عن إجرامه والصفح عن عصيانه مع خلع الشرف والزلفى برشوة يقدمها الى الفنار . وخلاصة القول انه لم يكن هنالك آداب عمومية ولا عاطفة وطنية ولا مراعاة للعدل ولا مقياس يميز الحق من الباطل

وكان اكبر وزراء السلطان يذبح بعضهم بعضاً كلما أصابوا الى ذلك فرصة . ولقد بلغ برقدار باشا صاحب رشتاق، بعد رشو الانكشارية ورجال الدين ، من القوة والنفوذ بحيث تمكن من قتل أحد السلاطين وخلع الثانى وتنصيب نفسه صدراً أعظم للثالث . بيد أنه، على ما كان يتصف به من سداد الرأى ومضاء العزيمة، لم يكد يشرع فى القيام بأيسر ضروب الاصلاح وأهونها حتى أطاحته عن منصبه تلك الأيدى التى رفعته اليه ، ثم حوصر فى القصر فأشعل كمية من البارود فرّقت بين روحه وجسده

والظاهر أن الدول الأوروبية كانت تحرص على الاستفادة من اختلال الأحوال فى تركيا ؛ فان قوة بريطانية بقيادة القائد « أوزوالد » احتلت ثلاثة من الجزر الأيونية، وسار القائد فريزر على رأس حملة عدائية الى مصر فانطلق يجوب عرض البحر مهدداً ، بين صقلية ومارابوت، حتى فقد معظم نقالاته وجنوده ، و بلغ رشيد من أتباعه القائدان « واشوب » « وميد » فلوّثا العلم البريطانى هنالك بانهزامهما شر هزيمة وضرب « دكورث » « وسمث » قلاع

الدردنيل بالمدافع؛ فأجاب الأتراك بقنابل من حجر الجرانيت زنة الواحدة ٨٠٠ رطل فسقطت فى البحر من غير أن تلحق بالأسطول أدنى ضرر . واشترك الروس مع الانجليز فى هذه الحرب، فأرسلوا أمير البحر سنياڤن الى بحر مرمرة واحتل القائد ميشلسون اقليم بساربيا؛ ثم انقض على البلاد بالسيف والنار متقدماً نحو الدانوب

وما كان الباب العالى ليجد شيئاً من الراحة والسكينة أثناء الفترات القصيرة التى كانت تتخلل هذه الحروب؛ فان تاريخ الدولة فى ذلك العهد مفعم بما كانت تقاسيه من ضروب الاذلال المر والاهانات الجارحة

فكان نابليون لايزال يدس الدسائس مع والي بغداد ويانينا الخارجين على السلطان؛ وكان السفير الفرنسى سبستيانى والسفير الروسى اتالنسكى لا يزالان فى أشد النزاع كلاهما مع الآخر ومع سائر السفراء: والباب العالى ازاء كل ذلك عاجز الحيلة قصير الباع مضطرب الحال مختل الأمر حتى لقد تمثل فى الأذهان ان أركان الدولة على وشك التداعى وبنيانها على شفا الانهيار

بيد أن الفوضى والشقاء والتدهور لم تكن قد بلغت من الشدة فى قطر من أقطار الدولة العثمانية مبلغها على ضفاف النيل. فمنذ انتصرت جموع قمبيز على جيوش «ابسامتيك» لم يتربع على عرش الكنانة أمير مصرى، حتى كأنما حقت على ذلك الشعب كلمة النبي حزقيال حيث يقول «لن يجلس على عرش مصر أمير مصرى» وكذلك لبث الفرس واليونان يجتاحون سهولها الخصيبة وينشرون الخراب فى ربوعها العامرة. ثم جاءت فترة

طويلة كلها حروب داخلية وفتن وثورات ؛ وأتى الرومان بعد ذلك يتممون ما بدأ الفرس واليونان فباتت تلك البلاد الأسيفة فريسة السلب والنهب وصارت ترهن وتباع وتشترى وأصبح حكامها لا يأمنون على مراكزهم الا بدفع جزية لولاة الأمور فى رومة من أعيان فاسقين وفرسان جشعين ؛ وما كانوا ليحصلوا على تيجانهم الشائكة الا من سبيل الخيانة والفسق والقتل . وقد تركت حوادث ذلك العصر المظلم وصمة باقية وعاراً لازماً حتى على أسماء « قيصر » و« بومبى » و« كاتو »

وفى سنة ٦٤٢ افتتح العرب مصر بقيادة عمرو بن العاص أحد عمال الخليفة عمر . ولم يمض الا قليل حتى تفشى فى البلاد وباء أباد ثلث سكانها ثم نزل بها قحط بلغ من الفظاعة والشدة مبلغاً أفقد الناس صوابهم حتى جعلوا يلتهمون جثث المجرمين وجيف الموتى . وكانت أول غارة للترك على مصر فى سنة ١٠٦٧، ولكن قائدهم أبو على حسن نصر الدولة قبل الانسحاب بجيشه فى نظير مبلغ من المال ترك خزينة الخليفة الاسلامى خالية الوفاض* وأتت بعد ذلك عصور شدة وبلاء، ودهور محنة وبأساء، لم يشرق السعد فى خلالها على مصر الا أثناء حكم صلاح الدين ذلك البطل الكريم والفارس المغوار، خصيم قلب الأسد . ولكن عظماء الرجال عديمو الخلف ؛ لذلك لم يكن بين أعقاب صلاح الدين من هو جدير باسمه خليق بنسبه. وفى سنة ١٢٥٠ خلع آخر ذريته الملك الصالح وقتل بأيدى حرسه

أولئك الحرس هم المماليك الذين طار ذكرهم فى الخافقين وطبق

* وقعت هذه الحوادث فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر بالله (١٠٣٥ — ١٠٩٤م)

صيتهم المشرقين . وكانوا جماعة من الجنود المرتزقة استخدمهم السلطان بادئ بدء لحماية الثغور وحراسة شخصه ، وذلك لأن الوطنيين من سكان مصر كانوا لا يصلحون لحمل السلاح لطول ما تقادم عليهم من عصور الاستبداد التى أورثتهم الجبن والكذب والعجز والمذلة

وكان منشأ هؤلاء المماليك — الذين ذكروا لأول مرة فى الحرب الصليبية الثالثة — فى بلاد القوقاز ، وكانوا يمتازون بشعورهم الشقراء وكان السبب فى قدومهم الى مصر غزوة التتر فى سنة ١٢٢٧ . وذلك ان اتباع جنكيز خان واتباع حفيديه « باطو » و « هولاكو » لما انقضوا على البلاد يوسعون أهلها قتلاً وتذبيحاً حتى سئموا وكلوا عمدوا الى بيع أسراهم ، فملؤوا أسواق آسيا بالجموع الغفيرة منهم ، فاشترى الأيوبيون من هؤلاء الأسرى نحو اثنى عشر ألف مملوك

وظل الأيوبيون يحافظون على هذا الحرس الغريب التأليف ويضاعفون عدده بنفس الوسيلة التى اتبعوها فى انشائه . فكان المماليك بأسرهم عبيداً أرقاء ، يشترون من موطنهم ، ويجلبون الى مصر من غير أن يكون لهم فيها أدنى صلة يمتون بها أو قرابة يحنون اليها . وكانوا يجلبون فى العادة من بلاد الشركس ، حيث تجد الناس الى يومنا هذا لا يتذممون من بيع أفلاذ اكبادهم . وكان المماليك أنفسهم يتخذون من معرتهم مفخرة ومن سبتهم منقبة ، اذ كان من المقرر بينهم أن لا يرتقى أحدهم الى رتبة البيكوية ما لم يكن قد بيع واشترى . وقد ظلوا يحكمون مصر نحو ٥٥ عاماً

فلم يترك أحدهم فيها ذرية باقية، لأن ذريتهم كانت تفنى على بكرة أبيها فى الجيل الأول أو الثانى

فلما أصبح هؤلاء المماليك أسياد القطر وحكامه جعلوا يُنصِّبون من أنفسهم زعماء على جماعتهم كيفما شاءت لهم أهواؤهم . وكانوا يولون الحكام ويخلعونهم كلما أرادوا، وكثيرًا ما كان يتفق قيام اثنى عشر زعيماً فى وقت واحد يتزاحمون على السلطة العليا . ولبث الأمر كذلك حتى افتتح البلاد سليم الأول فى سنة ١٥١٧ فقضى على هذه المنازعات قضاء مؤقتاً؛ وكان المماليك قد نهضوا نهضة الشجعان فاجتمعوا تحت لواء طومان باى واعترفوا له بالسيادة بيد انه ما كان شىء ليستطيع مقاومة زحف الأتراك وصد تيارهم الجارف؛ فانهزم المماليك ووقعت فى صفوفهم مذبحة ذريعة قتل فيها قائدهم

من ذلك العهد انتقلت السلطة الاسمية من أيدى المماليك، ولكن سليم لم يحاول أن يقضى عليهم قضاء تاماً؛ وانما اكتفى بتغيير شكل الحكومة واصدار قرار أعلن فيه ان مصر أصبحت جمهورية تابعة للسلطنة العثمانية، يدير شئونها أربعة وعشرون سنجقاً من المماليك (حكاماً للمديريات) ، ويرأس هذه الهيئة وال يعين من قبل الباب العالى، ويبقى فى القطر جيش احتلال دائم مؤلف من جنود البحرية والانكشارية . غير ان المماليك تمكنوا، بما جمعوا من الثروة بكل وسائل الاضطهاد، من افساد دخيلة ذلك الجيش القوى الذى كانت مهمته قمع طاغيهم وردع غاويهم؛ فلم ينشب ان اضمحل شأنه وأصبح عبارة عن لفيف من الرعاع والغوغاء بلا أسلحة ولا

ضباط، يستشعرون للمماليك من الخوف والرهبة ما يستشعره أوضع المصريين وأحقرهم . ولن تجد فى الأقاصيص المأثورة عن جيوش الأواخر من آل ستيوارت[1] وعن الجيوش الروسية منذ نصف قرن ما يقارب الفساد الذى بثه المماليك فى جيش الاحتلال التركى؛ حتى لقد جاء وقت كان الباب العالى يدفع فيه الأعطيات لجيش عدته تسعون ألفاً ولكن الموجود بالفعل كان لا يتجاوز ثمانية عشر ألفاً، كلهم سيئ الغذاء رث الملبس يكاد يكون عديم السلاح والعدة

والظاهر أن الباعث الذى دعا سليم الى أتباع تلك السياسة الخرقاء خوفه لئلا يصبح الوالى على مثل تلك الأمارة الغنية مفرط القوة منيع الجانب. لذلك عمد الى تقييد سلطته وتضييقها، فسرعان ما اضمحلت تلك السلطة وتلاشت كلية، حتى لقد تمكن المدعو ابراهيم بك[2] حوالى سنة ١٧٤٦ من القبض على أزمة الحكم فى مصر وكان قد توصل بحسن سياسته الى تعيين ثمانية من أهل بيته فى ثمانية من مناصب الأربعة وعشرين سنجقاً

وعلى اثر وفاته شبت فى البلاد نيران فتن دموية طويلة. وفى اثناء ذلك كان الأشراف من زعماء الأعراب — أولئك الذين كانوا يتتبعون أنسابهم الى النبعة المحمدية من غير أن يفقدوا فى سلسلة النسب حلقة واحدة — يجدون أنفسهم خاضعين لسلطان أى جندى سعيد الحظ

(١) هى اسرة حكمت انجلترة من سنة ١٦٠٣ — ١٧١٤ م .

(٢) هو رئيس حزب الكردغلية من المماليك اذ ذاك . وكان على بك الكبير الذى استقل بمصر سنة ١٧٦٩ أحد مماليكه

طموح الى المعالى لا يبالى بالعواقب ولا يرهب العقبات ، ولربما أمسكوا عن الولاء لأولئك الغرباء المتوحشين وتدفقوا بجموعهم المسلحة على المزارع والمروج فاكتسحوا ما بها من ماشية ومحصول

فى ذلك العهد كانت أخلاق المماليك قد بلغت من دركات الانحطاط والتدهور أسفل ما يتصوره العقل . كانوا يذبحون الولاة المعينين من قبَل السلطان فى رائعة النهار كما كانوا يتذابحون فيما بين أنفسهم ويتقاتلون متذرعين الى بغيتهم بالسم وهو سلاحهم المحبوب . وكانت حياة الفرد منهم، كما قال المسيو ڤولنى * ، سلسلة من جرائم القتل ، والغدر ، والمؤامرات والدسائس . قد انقطعت بينهم وبين بعضهم بعضاً ، كما انقطعت بينهم وبين سائر الناس، أسباب المحبة والعطف وصلات القرابة والرحم ؛ فراحوا يتورطون فى حمأة الرذيلة ويدمنون معاقرة الخمر ، ويسترسلون فى جماح الفسق ، ويرتكبون من الموبقات والآثام كل ما استنزل غضب السماء على قوم لوط . وكان النظام قد انتفى من صفوفهم ، والطاعة قد ذهبت من قلوبهم ، ولم يبقَ فى أنفسهم شىء من تلك الروح الحربيـة الجريئة التى كانت أغلب الخصال عليهم ، وأظهر الصفات فيهم . فلم يعودوا أولئك الفرسان الشجعان ، والأبطال المناجيد ، الذين كانوا بحملاتهم العنيفة يلقون الرعب والدهش فى قلوب نخبة الجيوش الأوروبيـة ، والذين اعترف لهم بالفضل قائد الفرنسيس نابليون على تشيعه لأمته وتعصبه لشجاعة أبناء

* هو أحد المستشرقين الفرنسيين الذين حضروا الى مصر قبيل الحملة الفرنسية وكتب عن حالة مصر فى ذلك العهد وكتابه عمدة فى تاريخ هذه الفترة

جلدته ؛ فقال على الرغم منه انهم أحسن فرسان فى العالم . وكانت بيوت البيكوات من المماليك قد أصبحت مواخير من القذارة والدعارة، بعد ان كانت فى الماضى مثالاً للنزاهة والتقشف وعنواناً للبساطة والتزهد. وكنت تشاهد الجماهير من « العوالم والغوازى » محتشدة حول خيامهم يغنينَ ويرقصنَ فى مساء الليلة التى سيشهد صبحها احتدام القتال ومعترك الجيشين. وكان حكام المديريات منهم يقضون معظم أوقاتهم فى القاهرة تخنثاً وترفهاً فلا يغادرون العاصمة الا للسلب والظلم. وكان فيهم من التغطرس والكبرياء بقدر ما فيهم من القسوة والجشع ، حتى لقد كانوا يعدون المشى على الأقدام سبة وعاراً . وكانوا يتفاخرون كل التفاخر ويغالون كل المغالاة بالخيول الفارهة ويتخذون لها العدة الرائعة والحلية السنية ولا يسمحون لأهل البلاد بأن يركبوا غير البغال والحمير

وكان لباسهم مستغرب الذوق ثقيلاً ؛ اذ كنت ترى الواحد منهم ملفقاً مزملاً فى الثياب الفاخرة ، مدججاً من ذؤابة رأسه الى أخمص قدمه بالأسلحة المزخرفة ؛ حتى لقد كانت كسوة البك تبلغ من الثمن ما لا يقل عن ٦٠٠ جنيه ، وهو مبلغ عظيم اذا ذكرنا ان قيمة الجنيه كانت يومئذٍ ثلاثة أمثال قيمته اليوم ؛ وان النقود فى مصر أندر وجوداً وأرفع قيمة منها فى انجلترة . وكان ثمن الواحد من جيادهم يبلغ ٣٠٠ جنيه ؛ وكانوا يعنون بانتقائها من أكرم الجياد العربية وأعظمها نجابة وعتقاً . وكان من شأن المماليك حتى الذين لم يبلغوا منهم رتبة البيكوية أن يتخذوا لخيولهم رُكباً مذهبة واحلاساً مزركشة بالذهب وسروجاً ولجماً مصفحة بكريم المعادن

وكان أكثرهم يتظاهر باحتقار الزواج؛ ولكن جواريهم ومحظياتهم كن يرفلن فى أذيال الترف والنعيم، ويتبرجن فى روائع الحلى والزينة. وكانوا يشترون بالأثمان الفادحة أجمل الجوارى الشركسيات من أسواق الاستانة وأزمير فيحبسونهن على ملاذهم وملاهيهم مزينات بأفخر مصنوعات ليون وجنوه. وكان يعلق بشعور أولئك الغوانى أعباء ثقيلة من الجواهر والدنانير

أما الشعب فقد كان يرزح تحت كلاكل الظلم والاستعباد. لا يأمن أحد على أملاكه الا السناجق وحملة الشرع. وليس لأحد حق فى الوراثة، بل الحكومة هى المالكة لكل شىء. وكانوا لا يسمحون للفلاح الا بمسكة الرمق وبلغة العيش، ولا يبيحون له أن يأكل الأرز الذى زرعه ولا القمح الذى أنبته؛ بل كان طعامه الذرة الهندية، التى يصنع منها خبزاً كريه المذاق. فهذا مع قليل من الماء وقليل من البصل والعدس كان غذاؤه الوحيد طول العام. وكان الفلاحون لا يكادون يرتدون من اللباس شيئاً ويسكنون فى أكواخ من الطين يعجز القلم عن وصف ما بها من قذارة ورثاثة

وكان حديث القوم فى أسواقهم الخربة، وخاناتهم المتهدمة، لا يدور الا حول ما حل بالبلاد من الفتن الداخلية، وما يئن تحت اعبائه الأهلون من التعس والشقاء. إذ كانت الافراد تطرح أرضاً فتجلد او تقتل بدون أية محاكمة؛ لا يفلت من ذلك شيخ أو امرأة. وكان الضباط يطوفون الشوارع ليلاً ونهاراً، وبرفقتهم زمرة من الأشقياء يحملون حقائب جلد يضعون

فيها ما يحزه أولئك الضباط السفاحون من الرءوس أثناء طوافهم . وكانوا لا يرون من الضرورى لتوقيع عقوبة الاعدام قيام الدليل أو شبه الدليل على اجرام المتهم ؛ وانما يكتفون فى إثبات إجرامه بما قد يكون في حيازته من الثراء والغنى . فيطلب هذا الثرى التعس أمام أحد البيكوات ويؤمر بدفع مبلغ من المال؛ فاذا أبى وأنكر طرح على ظهره ، وصب على أخمصى قدميه نحو مائتين أو ثلثمائة سوط . ولا شك ان مثل هذا العقاب كاف لاقعاده عن الحركة عدة أشهر ؛ فاذا أصر على عناده ، وتمادى فى انكاره قتل بلا شفقة ولا رحمة . لذلك لم يرَ الأغنياء وسيلة للاحتفاظ بما لديهم من المال إلاّ بالتظاهر بالفاقة والمتربة . وكان الأسرى الذين يؤخذون فى خلال كل مشاحنة أو مشاغبة ، يذبحون بوحشية وفظاعة تذيب الصخر . وكان هؤلاء المجرمون يبعثون الى رؤسائهم بسلأت مفعمة برءوس الآدميين وآذانهم ، برهاناً ساطعاً على ظفرهم بعضاً على بعض . وكان الرئيس يدفع لهم خمسين قرشاً عن كل رأس أو أذنين . فكان حب المال يغرى بعضهم بقتل رفاقه فى الصف خلسة طمعاً فى ذلك العطاء الشائن . ومما يروى عن الألفى بك وهو من أشهر مشاهير السناجقة ، انهُ أنفذ خطاطيف من حديد فى ذقون بعض الأعراب ، وصلبهم صفاً صفاً فى جذوع الأشجار . وحدث فى دمياط ان طاغيـة يدعى ديلى محمد تغالى فى استنزاف دماء القوم ، فلم يرضَ بما كان يغتصبه منهم بالعذاب والتكبيل فى الأصفاد والأغلال ، حتى أجبر بعض اليهود على بيع أفلاذ اكبادهم بيع السلع ، ثم تقاضى هو ثمنهم بلا خجل ولا عار . ومن ذلك أيضاً أن ماحو بك ،

الذى كان يقود القوات فى دمنهور، قبض على أحد التجار وضرب عليه غرامة فادحة، لم يكف لوفائها كل ما لدى هذا التاجر من المال والعقار؛ ومات الرجل فى سجنه، فلما حضر أهله وأقاربه لأخذ جثته، أفهموا أن الجثة لن تسلم اليهم، الا اذا قدم ابن التاجر نفسه الى السجن مكان والده. وكثيراً ما كانت الأفراد تضرب حتى تلفظ الحياة. وكانت أعلام الدول الأجنبية تحتقر وتهان بدرجة أشنع من التى جرت الخراب على بلاد الجزائر. وكذلك كان الخطر يحدق بالأجانب والنساء فى ذهابهم وايابهم فى الشوارع. فمن ذلك ان (المسيو روبير) أحد الفضلاء الفرنسيين بترت إحدى جوارحه وهو خارج من بيته لغير ما سبب؛ وان بنت معتمد السويد السياسى ماتت بطلق نارى فى طريقها مع أختها الى الحمام

أما حركة التجارة فانها شلت؛ وكان التجار يضطرون الى ارسال سلعهم فى قوافل عظيمة العدد، حتى ان القافلة التى سار بصحبتها «فولنى» بلغ عددها ستة آلاف رجل. على أن هذا العدد ما كاد يكفى اذ ذاك لتأمين القافلة غائلة الاعتداء والسطو. وفى ذلك العهد أهملت تجارة الحرير التى كان لمصر فيها القدح المعلى من غابر الأزمان. وعم الجدب البلاد فتحول أخصب بقاعها الى فلوات جرداء لا زرع فيها ولا ضرع. وكان مشاهير اللصوص، والخارجين الذين لا تزال اسماؤهم باقية تفزع بها الصبيان كأبى ليلى وأضرابه، يتقلدون مناصب عالية فى الجيش. وكان قد انتشر فى طول البلاد وعرضها عصابات كبيرة من اللصوص تأتى بالعجائب والمدهشات من ضروب الحذق والمهارة؛ اذ كانت حياتهم

تلقى الدهشة حتى فى قلوب المطلعين على كتابات « فيدوك* » ؛ فكثيرًا ما سرقوا خيل الضباط الفرنسيين على مرأى من جنودهم، وكثيرًا ما نشلوا سيوفهم من جوانبهم ؛ وكانوا يختبئون وسط علف الخيل واكوام المؤن والذخائر — وفى ذلك خطر من الموت اختناقاً — ثم يدحرجون براميل البارود وعدول الغلال من غير ان يراهم أحد . وكانوا يهدمون ظهور الجدران ، فيسرقون أمتعة الجنود بسرعة ومهارة تمكنهم من الامعان فى الفرار قبل أن تكشف جناياتهم . أما لصوص النهر فكانوا أبلغ من هؤلاء مكراً وأشد حذقاً ، وأدهى حيلة ؛ يؤيد ذلك ما رواه (المسيو منجن) ، ان اعرابياً ظل يسبح فى الماء مدة طويلة وراء قاربه ، ثم تسلق جانب القارب على غرة واختطف عمامة النوتى وغاص فى الماء قبل ان ينتبه اليه أحد ، ثم لم يلبث ان طاف على وجه الماء ثانية على مدى لا تصل اليه طلقة نارية . وقد بلغ من شدة الحال ان المرء كان لا يستطيع الذهاب لقضاء الحاجة وهو آمن مطمئن على نفسه . بيد ان بعض نوادر هؤلاء السراق المكرة لا يلتئم ذكرها مع هذا المقام ، وان كانت تنال اعجاباً عظيماً فى الأقاصيص العربية . وكان لهم نقابة منظمة

وفى خلال هذه الفترة انحطت جميع العلوم والمعارف على اختلافها ؛ فكان أوفر البكوات عقلاً يعتقد فى العرافة ، والتنجيم ، والسحر ، ويؤمن كل الايمان بصدق الطيرة والأحلام ، ونبوءات الساحرات . هذا الى ان الكهانة كانت عندهم حرفة رائجة

* هو من مشاهير البوليس السرى الفرنساوى فى القرن التاسع عشر

تلك هى الحالة الفظيعة التى أنقذ محمد على البلاد المصرية من شرورها واقذائها . حقاً إن الحملة الفرنسية كان لها بعض الأثر فى قمع مظالم البيكوات وتقليم أظفارهم ، لكن الحال لم تدم طويلاً ، إذ على إثر موت القائد كليبر أخذت نار الأحقاد تشتعل بينهم ، فظهر ما خفى من عسفهم وقساوتهم وجورهم وخلاعتهم

وقد ظل محمد على خمسة أعوام يتحمل شغب القوم وفتنهم ، ويصبر على عبثهم ودسائسهم بجأش رابط ، ولكنه رأى بعد ذلك بثاقب نظره ، ان سلطانه لا يكون ثابت الدعامة ، وان حياته لا تكون فى أمان ، إلاّ بعد القضاء المبرم على نفوذ المماليك فى البلاد جملة . ولم يلبث طويلاً حتى أسعده الحظ بسنوح فرصة للاجهاز عليهم؛ فانهُ بتحصين ميناء الاسكندرية ، واصلاح معاقل الشاطئ ، أمن شر تدخل القبودان باشا وهجماته ، كذلك كان فى قبضة يده كل موارد الثروة فى البلاد يشد أزره جيش جرار من الاشداء المدربين؛ يضاف الى ذلك ان ظفره على القائد «فريزر» * الانجليزى رفع من مكانته وأعلى من شأنه فى دار الخلافة ، فأصبح عظيم الثقة بنفسه . لذلك صحت عزيمته على مناجزة المماليك المتجمعين فى الوجه القبلى بتسيير جيش عليهم؛ وبعد مناوشات عدة عقد بين الطرفين هدنة ، وسمح للبيكوات بدخول العاصمة . واهتم الوالى مدة بترضيتهم ولكن ذلك كان مستحيلاً ؛ فأخذ كلا الفريقين يدس الدسائس ويتآمر بهمة لا تفتر

* راجع كتاب تاريخ مصر من الفتح العثمانى تأليف عمر الاسكندرى وسليم حسن ص ١٢٣

للقضاء على عدوه . ووجد محمد على ان كل مكايده وحيله لن تفلح أمام عداوة البيكوات المتأصلة

كان مطمح آمال محمد على إذ ذاك تخليص الأماكن المقدسة من جماعة الوهابيين ، غير أنهُ لم يكن ليجسر على سحب جندى واحد من مصر مع وجود جيش شديد البأس للمماليك فى البلاد لم يهزم بعد . وكان على يقين انهم يتحينون فرصة غيبة الجنود الأتراك من مصر ليشقوا عصا الطاعة على محمد على ثانيـة . فكان الأمر موقوفاً على أى الفريقين يكيد أولاً للآخر كيداً ناجحاً ، لأن فشل أحدهما يكون مبدأ نجاح الآخر . فبينما كان محمد على فى السويس يلاحظ تجهيز الحملة على بلاد العرب ، تسلم رسالة من محمد بك لاظ الكخيا أخبره فيها ، أن المماليك عزموا على أن يكمنوا له ويأخذوه على غرة فى طريقه الى القاهرة . لذلك لم يطل مكثه فى السويس كما كان عازماً ، بل غادرها فى غلس الظلام على نجيب سريع دون أن يُعلِم أحداً وجهته ، ووصل الى القاهرة فى فجر اليوم التالى مع أربعة حراس . وكانت هذه المكيدة وأخرى غيرها كشفت فى ذلك الوقت سبباً فى عقده النية على ان يكون هوالسابق فى القضاء عليهم

لقد استولى الرعب والوجل على محمد على ايما استيلاء ، فدبر المكائد للقضاء على اعدائهِ بكل ما أُوتيه من الدهاء والمزيـة ، فأصدر الأوامر بالاسراع جهد المستطاع فى تجهيز الحملة الى بلاد العرب ، وكان الاحتفال بتنصيب طوسون باشا ثانى أولاد محمد على قائداً لهذه الحملة مقدمة لسيرها فى القريب العاجل ؛ فعيّن لاقامة هذا الاحتفال فى قلعة الجبل يوم قريب

دعى لحضوره رؤساء الأجناد والمماليك أيضاً

خرج بيكوات المماليك ممتطين جيادهم المطهمة تختال بهم فى شوارع القاهرة لآخر مرة فى حياتهم؛ وكان ذلك فى صبيحة اليوم الأول من شهر مارس سنة ١٨١١ م حينما تشرع الرياح الجنوبية فى الهبوب وتشتد لوافح الحر، حتى فى باكورة الصباح، فلا يحتمل لهيبها اوربى. وكان لا يزال بين هؤلاء الطائفة فتية امجاد، فخرج فى ذلك اليوم جمهم المحتشد وفيهم من لا يحجم عن الركض بجواده الى حيث يعانق الموت المحتم بقلب منشرح، ومن يرى فى منازلة القرن ملهى وفى ساحة الوغى ملعباً؛ بل ومن يحمل فى صدره فضائل غريزية كالكرم، وحب الضيافة، والصداقة، ومن يذود عن حياض أوليائه، وينقاد بسهولة لكل خاطب وده. نعم لقد كان فى ذلك الموكب البهى والجمع المتألق رجال طبعوا على النجدة والشجاعة، والسخاء والسماحة، والصدق والصراحة، مليون بكل فكاهة مليحة ونكتة دقيقة، يحسنون التقليد ويرعون حق الإخاء. تلك الطائفة تفرّق شملها وانتكث فتلها فى يومى شبراخيت والأهرام* وتدنست صفوفها لما اختلط بهم أربعة من الفرنسيين، ولما اندس بينهم ابراهيم بك ذو اللحية البيضاء، الذى لم يشترَ بالمال مثلهم. ولكن بالرغم من ذلك، كان عددهم لا يزال يتراوح بين أربعمائة وخمسمائة فارس. وقد خرج من صفوفهم أربعمائة وسبعون

---

* لما علم المماليك بزحف نابليون على القاهرة قابله مراد بك أحد رؤساء المماليك فى جيش تبلغ عدته ٤٠٠٠ جندى عند شبراخيت ولكنه هزم فتراجع الى القاهرة وبعد ذلك سار نابليون بجيشه قاصداً القاهرة. وكان مراد بك قد استعد للقائه عند امبابه فدارت الدائرة على المماليك وهزمت جموعهم شر هزيمة فى ٢١ يوليه سنة ١٧٩٨

فارساً فى موكب يشهدون الاحتفال بابن الوالى . وكان شاهين بك أول من خرج منهم على رأس مماليكه ؛ ثم قفى أثره المماليك الآخرون ، فقابلهم الوالى فى قاعة جلوسه بكل حفاوة وفخامة ، فصرفوا الوقت فى تناول القهوة والحديث أثناء الاحتفال ، وبعد الفراغ من ذلك جاء الاذن بالرحيل فأخذ المماليك يمتطون متون جيادهم ليشتركوا فى سير ذلك الموكب الفخم الى المعسكر

وكانت العادات المتبعة اذ ذاك تلزم كل فرد باتخاذ مكانه حسب رتبته . فكان فى طليعة الموكب فرقة من عساكر الدلاة المشهورين الذين كانت تفخر مصر بشجاعتهم واقدامهم ، وعلى رأسهم أوزون على ؛ ثم تلاهم اغوات الانكشارية فصالح قوج يقود جنده من الالبان بأزيائهم البيضاء . وأتى بعد هؤلاء المماليك ، فكانوا وسط عقد الموكب يقودهم سليمان بك البواب المشهور بضخامة الجسم وعظم الخلق وما أوتيه من غريب الحذق وعجيب المهارة فى قيادة جواده واستعمال مهنده . ثم جاء على اثر المماليك الرجالة ، فالفوارس ، فأولى الحل والعقد من الملكيين . وعلى هذا الترتيب سار المحتفلون ميممين باب العزب المؤدى الى ميدان الرميلة . وقد درست اليوم رسوم الطريق المؤدية الى هذا الميدان وتنكرت معالمها ، حتى لو انه بعث مملوك من قبره لتعذر عليه أن يميز البقعة التى شهدت مصرعه ، بيد ان شاهد عيان يوثق به من الذين شاهدوا ذلك اليوم الرهيب يقول ان الطريق كان ممراً ضيقاً متمعجاً منحوتاً فى أصل صخرة يكتنفه من الجانبين بيوتات وحصون . ولقد كان من الصعوبة بمكان أن

يسير فيه جوادان جنباً لجنب لشدة تعرج منعطفاته وزواياه، هذا الى أن الطريق نفسه كان حزناً وعراً

وعلى أثر خروج الدلاة والانكشارية من باب العزب أمر صالح قوج بايصاد الباب وأبلغ أجناده أمر الوالى بذبح المماليك، فلم يكد الالبانيون يتلقون الأمر، حتى ولوا وجوههم شطر المماليك وأخذوا يتسلقون الصخرة بما وهبوه من خفة ورشاقة كأنهم الظباء، فتبين لبيكوات المماليك فى الحال ما كيد لهم من الخيانة، ورأوا ان الهرب أو المقاومة لا يجديان فتيلاً. وقد أظهر لهم حرج مركزهم وخطورته ما انصب عليهم من وابل المقذوفات التى كانت بمثابة ايذان لمن وراءهم من الأجناد؛ وكان هؤلاء قد اتخذوا مراكزهم فى البيوتات المجاورة وخلف الجدران فأمطروهم ناراً حامية تساقط تحت وابلها الفرسان والخيل؛ وما كانت تغنيهم شجاعتهم وقتئذٍ شيئاً أمام عدو مختبئ. وقد حاول البيكوات عبثاً أن يولوا الأدبار ويستولوا على القلعة ثانية فيبيعون فيها دماءهم بأثمان غالية، ولكنهم وجدوا السبل مسدودة فى وجوههم؛ فلم يستطيعوا أن يقدموا رجلاً أو يؤخروا أخرى. فاينما ولوا وجوههم تلقفتهم سيوف الالبان. ومما زاد الطين بلة ان خيولهم جن جنونها من الصخب وصوت البنادق، فكانت تزل بها أقدامها وتسقط على الأرض فى كل ركضة. وقد جعل بعض المماليك يدحرجون أنفسهم على الأرض محاولين أن يتخلصوا من ملابسهم الثقيلة، ولكن العدو كان يصوب عليهم نيرانه، أثناء تقلبهم على الثرى. فخر شاهين بك صريعاً وقد اخترقت جسمه عدة رصاصات أمام أبواب قصر صلاح الدين، وقد مثِّل

بجثته، اذ جرّت فى الشوارع بحبل موثق حول خناقه. أما سليمان بك البواب فانه عمد الى قصر الوالى والدم يقطر منه وليس عليه من اللباس الاّ فضلة فلاذ بالحريم واستجار به بكلمات لا يزال يكررها كل لائذ وأسير (أنا فى عرض الحريم) ؛ غير ان استغاثته ذهبت صرخة فى واد ، وأمر الوالى بقطع رأسه بقسوة فظيعة كان مصدرها الخوف والفزع . ولم ينج من كل جماعة المماليك الذين امتطوا صهوات جيادهم الى القلعة وهم فى ربيع الصحة وعنفوان القوة الاّ أمين بك الذى قفز به جواده من ثلمة فى أصل الجدار*

ويقال ان محمد على لم يكد يرى الموكب يمشى فى طريقه الضيق ، حتى أخذ القلق يستولى عليه ، فكانت حركاته المضطربة تظهر ما بطن من عواطفه ووجدانه . فلما سمع أول طلق نارى ازداد وجله الى درجة لم يتمالك معها نفسه ، وشحب لونه ، وارتعدت فرائصه ؛ وقد يعزى ذلك الى خوفه من أن يُتهاون فى تنفيذ أوامره وتكون عاقبة تلك الموقعة الدموية خرابه وموته؛ أو الى أنه ندم على مافرط منهُ . غير أن منظر الجرحى من الأسارى والجثث المجندلة على الثرى والجماجم المطروحة على الأرض أزالت من فؤاده بلا ريب كل خوف على حياته وقلق على سلامته ؛ ومع ذلك ظلت ملامح الاضطراب بادية على وجهه وعواطف الوهل تختلج فى فؤاده . وبعد فترة دخل عليه « مندريسى » الجنوى أحد أطبائه فى حجرة جلوسه وأقبل عليه وقال ، وهو ضاحك الأسارير فى موقف لا يجرأ على البشاشة فيه غير

* يدعى بعض المؤرخين أن ما حدث لأمين بك خرافة لا أصل لها

أمثاله من الطليان . « مولاى قد قضى الأمر فهذا يوم من أيام سعودك »
فأطرق الوالى واجماً ، ولم ينبس ببنت شفة ؛ بيد أن سكوته كان فصيحاً
ولم يزد على أن فغر فاه المحترق من شدة الوجد طالباً جرعة ماء

على أثر ذلك أبيحت منازل المماليك للنهب والسلب ، وأخذت منها أسلاب وفيرة ، وصدرت الأوامر باستئصال كل ما عسى أن يكون منهم بالمدينة، وأنذر بالعقاب كل من يجرأ على اخفاء مملوك ، أو يسهل له سبيل الفرار . ولبث النهب يومين كاملين بلا رادع، وفى اليوم الثالث خرج الوالى فى ثياب حفلته ، وسار فى موكب مهيب يجتاز المدينة ويأمر بحقن الدماء ، وسمح لمن نجوا من المذبحة الكبرى بالانكفاف حيث يشاؤن ، أو بالبقاء آمنين مطمئنين . ويقال ان عدة من قتل فى ذلك اليوم بالقلعة وحدها بلغت أربعمائة وأربعين مملوكاً . وان سائر من قتل فى الأقاليم والمدينة بلغ مجموعهم نحو ١٢٠٠ قتيل . أما من نجا منهم فقصتهم معروفة . فالذين كانوا فى صعيد مصر هاجروا الى أعالى النيل ثم التجأوا الى حمى ملك شندى، بعد أن أوقع بهم ابرهيم باشا غدراً فى اسنا ، ولما اقتربت منهم الجيوش المصرية فى سنة ١٨٢٠ غادروا وادى النيل ميممين ناحية الغرب فاجتازوا دارفور ونفذوا خلال الصحراء حتى وصلوا الى سواحل البحر الأبيض ولم يبلغ طرابلس منهم الا نحو خمسة عشر مملوكاً أو دون ذلك فذهب بعضهم الى القسطنطينية حيث ألقى عصا التطواف وقضى أواخر أيامه . وكان قد بقى منهم بقية يسيرة فى مصر فالتحقوا بخدمة الوالى حيث ارتقى بعضهم كعثمان بك وغيره الى درجات رفيعة ، حتى لقد عين أفراد منهم حكاماً

للمديريات . أما الذين كانوا يستطيعون الاعتماد على أنفسهم في معاشهم فقد رخص لهم بالمقام فى القاهرة

لا نزاع فى أن محمد على قد اقترف بهذا الفعل جريمة شنعاء وان مسلكه فى هذه الحادثة يستعصى على كل من يروم تسويغه وتبريره، بيد أنهُ لا سبيل الى انصافه حق الانصاف والى المعادلة بين مبلغ اللوم ومبلغ الاعتداء الاَّ اذا راعينا موقف المجرم وأحوال الزمان . لقد كان القضاء على دولة المماليك الأساس اللازم لكل ما يأتى بعد ذلك من ضروب الاصلاح ، إذ كان حكمهم ملوثاً بكل رذيلة من رذائل الاستبداد ، وبكل ضرب من ضروب القسوة الملازمة لتسلط شعب على شعب ، وكان ما يدلى بهِ زعماؤهم من الدعاوى المتناقضة والمزاعم المتضاربة قد جر على البلاد سلسلة من المصائب والنكبات قلما وقع مثلها فى تاريخ العالم . وما ذلك بمستنكر على طائفة من الطغاة الفاسقين قد انغمسوا فى حمأة الخمول والدعارة ، وراحوا يقضون الحياة بين الكأس والطاس ، يتعاطون الأفيون ؛ ويداعبون الجوارى ويستمعون سخافات الماجنين، فاذا انتبهوا من رقدتهم وأفاقوا من سكرتهم لم يكن ذلك الاّ لتلطيخ أيديهم الأثيمة بدماء القتلى ومذابح الأبرياء . يضاف الى ذلك أنهُ لم يكن هنالك سبيل الى ابتياع ولائهم والاستيثاق من اخلاصهم ولو أغدق الوالى عليهم موارد القطر بأجمعه . فانهم كانوا قوماً لا يوثق لهم بعهد ولا يكتسب رضاؤهم بمال

ان السياسة فى بلاد الشرق لعبة خطرة ؛ وما كان محمد على فى هذه الحادثة يجاهد لتوطيد ملكه وحسبُ ، بل كان كذلك يجاهد دفاعاً عن

حياته وكفاحاً عن حريته. والخوف، كما تعلم، أشد العواطف غلظة وأنماها للقسوة فى قلب صاحبه. وقد كان محمد على يحارب أعداء أقوياء ماكرين وخصوماً ألداء غادرين. جرب معاشرتهم على الوفاق والوئام فحاولوا الغدر بهِ واغتياله مرتين، ولكنهُ كان يوفق الى إحباط مسعاهم حتى استقرّ فى نفسه انهُ لا فائدة من مهادنتهم، كما كان يعلم أنه لا قبل له بمعاقبتهم

وحيثما انعدمت الشرائع راجت أسواق القسوة وصنوف المظالم، إذ لا بد من وجود رادع يكف الأقوياء من أولئك الطغام عن الظلم ويرد الطائشين عن العيث. واذا تأملت فى مسلك البيكوات المماليك لما رأيت من بينهم من لا يستحق المحاكمة والإعدام لتعكيره صفو السلام وعبثهِ بالأمن، لو انهُ كان فى مجتمع ثابت الدعائم قابض على ناصية الحال. واذا قارنتهم بنبلاء التحالف الوطنى[1] الذين زعزعوا أركان حكومة آخر ملوك فلوا لرأيتهم أشد خطراً وأكثر عدواناً. حقاً لقد كان لهم من نجابة خيولهم وبهاء حللهم وشدة بأسهم وجمال أسلحتهم ما يغشيهم من رونق الجلال ويعقد على رؤوسهم من هالات المجد نظير ما يتمثل فى قلوبنا لأولئك الفرسان البواسل أصحاب روبرت ذى الحملات الصادقات فى موقعة ادجهل[2] وأولئك السادة الأرواع

---

(١) بعد موت شارل السابع ملك فرنسا سنة ١٤٦١ تولى الملك ابنه لويس الحادى عشر وكان أول عمل قام به عزل وزراء والده وقواده فانضم هؤلاء الى الخارجين من الاشراف وتحالفوا عليه وشنوا الغارة باسم الصالح العام وكان هذا الحلف مكوناً من اكابر أمراء البلاد فعزم لويس على القضاء على هؤلاء العصاة بما كان لديه من الجنود المنظمة، ولما لم يقدر على قهرهم بالسيف اجتهد فى حل عقد هذا الحلف تارة بتخفيف الضرائب وطوراً بارضاء الاشراف كل على انفراد

(٢) أول موقعة حدثت فى حروب انجلترة الداخلية فى عهد شارل الاول ظفر فيها أنصار الملك على حزب البرلمان سنة ١٦٤٢ وكان الامير روبرت قائد جيش الملك

الذين كانوا يضاوون الشمس بأسلحتهم البراقة وهم ملتفون حول هنرى نافار فى موقعة اقرى*. بيد انهم كانوا فى الحقيقة لا يفضلون طغمة من المتوحشين الجهلاء المدججين بالسلاح، دأبهم السلب والنهب، لا يبالون من أى ناحية أو بأى وسيلة. فالويل للباشا ان هادنهم أو عاهدهم والويل كل الويل ان أظهر أنهُ غلب على أمره. فالباب العالى ينحاز أبداً للجانب القوى. أضف الى ذلك أن الألبان الذين كانوا طوع بنانه يأتمرون بأمره فى قتل من شاء مدة عزه وجاهه، لا يتأخرون طرفة عين اذا فارقه الحظ وهجره الجد يوماً واحداً، أن يؤجروا على ذبحه. وكيف بحال من لا تطيب له لقمة خشية أن يكون السم قد دس له فيها

فليحكم عليه كما شاء كل من لم يقف قط فى حياته وقفة الحائر المتردد بين عزة الاستقامة وفتنة المجد: بين مقارفة الاثم ومواقعة الحين. أما غير هؤلاء فحسبه شفيعاً لديهم علمهم بضعف النفس البشرية ازاء عواصف الطمع والخوف، وكيف تزيغ أشرف الطبائع وأسماها عن محجة الهدى بدافع الخوف وحب السيادة

فاذا نظرنا الى تصرف محمد على بالعين الغربية المحضة كانت مذبحة المماليك جناية شنعاء، وخيانة نكراء، ولكن لا وجه مطلقاً لمقارنتها بمثيلاتها من جرائم الأمراء المسيحيين كنكبة كرستيان الثانى لأمراء

* موقعة انتصر فيها هنرى نافار او هنرى الرابع ملك فرنسا على الكاثوليك من رعاياه وذلك على أثر احتدام الخلاف الدينى فى تلك البلاد سنة ١٥٨٩

السويد*، وانما هى أشبه بالقضاء على الانكشارية الذى حدث فى الاستانة بعد ذلك ببضع سنين

أما اذا نظرنا الى فعلته بعين مواطنيه واخوانه المسلمين فانه يخرج برىء الساحة طاهر الذيل . ولا نبعد عن الحق اذا قلنا انه منذ عصر « بايزيد » الى اليوم لم يتول الحكم رجل ذو سلطان وبأس كان يتردد لحظة واحدة فى أن يفعل كما فعل محمد على لو وقف موقفه وأُبتلى بمثل محنته . وغير خاف أن الناس فى تلك الأيام كانوا يألفون رؤية الفظائع والمنكرات، وان مستوى الآداب العمومية لم يكن قد ارتفع الى ما هو عليه الآن . يضاف الى ذلك أن الباشا انما أتى ما أتاه صادعاً بأمر الباب العالى بلا مراء، فمصاب المماليك الاول عند بوقير انما دُبِّر فى الاستانة ، فلمَ لا تكون طامتهم الكبرى مدبرة هنالك أيضاً ؟

الا ان نكبة البيكوات كانت هى البلسم الشافى لجراح مصر وكلومها . فقد مكّنت محمد على من اقامة حكومة تفوق ، على ما بها من نقائص ومعائب ، حكومة السناجقة بمقدار ما تفضل حكومة كليف وهيستنجز فى الهند حكومات الأمراء الهنود التى قضيا عليها . حتى أصبح فى طاقته أن يقوم بأجلّ الخدم لبلاده وللعالم أجمع . ولقد يرد على هذا بأن أمثال هذه المعذرة لا تغنى فتيلاً؛ ولا أصدق من ان أعظم المزايا وأسماها لا يدفع بها عن تهمة الزيغ والتعدى ، مهما قل شأنهما . فاذا طواب شخص

* كريستيان الثانى حكم الدنمارك والنرويج والسويد فى أوائل القرن السادس عشر، أوقع بنحو ثمانين من أشراف مملكته بدعوى الدفاع عن الدين وتعد هذه الفعلة من أفظع المذابح التى رواها التاريخ

بدين ، لا يقبل منهُ دفاعاً عن نفسهِ ادعاؤه ان ماله قد بذل أجمعه فى البرّ والاحسان ؛ واذا سرق رغيفاً لرد غائلة الجوع ، لم يدفع عنهُ انهُ أحد ذلك النفر المعدود الذى مرّت عليهِ رزايا دهلى ولكنو. ولكن خليق بالذين هم بحكم مركزهم فوق الروادع العادية ، والذين هم معرضون لفتن أشد وأقوى من الفتن العادية ؛ ان يعاملوا باكثر من التسامح المعهود ، وان يتلقوا من التجاوز والصفح اكثر مما هو مألوف . وأمثال هؤلاء الأفراد يجب ان ينظر اليهم معاصروهم ، كما ينظر اليهم الخلف . ولا يقصد بهذا ان تقلب سيئاتهم حسنات ؛ بل توزن حسناتهم وسيئاتهم ، فاذا رجحت الأولى كان حقهم ألاّ يبرؤن من ذنوبهم فحسب ، بل يخصّون كذلك بكل مديح وثناء . وليس فى التاريخ من حاكم عظيم يخليه أى مؤرخ من كل شائبة أو شين ، اذا وضع نصب عينيه سيئة أو سيئتين من بين أعماله . واذا نظرنا بعين الروية والانصاف فى التهمة الموجهة الى محمد على ، لم نجده قد خرج عن عادات عصره ، أو تجاوز أحداً من ابناء جلدته في سيئاته وحسناته . ولن تجد بين مشيّدى الدول ورؤوس الأسر الحاكمة فى المشرق من يكاد يخلو من اقتراف بعض أعمال القسوة والعسف ، وما كان محمد على بشاذ عن هذه القاعدة . أما البحث فيما اذا كان من الجائز أو من غير الجائز انشاء أسرة جديدة بمثل هذا الثمن الفادح فمسألة أخرى ليس هذا مقام التعرض لها . وقد قال الوالى نفسه ، حينما خاطبه فى هذا الشأن أحد السياح الفرنسيين ، انهُ يرضى حكم الذين لا يرون جريمة فى مقتل

«دوق دنجوين*»؛ وكان يعدُّ هذه الفعلة أشنع بكثير من فعلته بالمماليك. على أن أغرب شيء في هذه المأساة أن طائفة المماليك المدربين على ضروب المكر والمكائد، الناشئين في جو من الخِدَع والدسائس، تزل بهم أقدامهم ويخدعون على أمرهم، وينشبون في أحبولة كان مثلها قد نُصب لمحمد على منذ عهد غير بعيد. وذلك أن الوالي خورشيد باشا طلب الى محمد على بكل وقار ورقة أن يحضر الى القلعة ليخلع عليه خلعة سنية وباشوية جدة؛ فرفض محمد على تلك الدعوة بكل تأدب واحترام

ومن ذلك العهد رأى الباب العالى أنهُ مضطر أن يعامل محمد على معاملة الحليف المستقل لا معاملة التابع القوى. وكان محمد على لا يستنكف أحياناً من دعوة كبار عماله ليقرأ عليهم عهداً من الباب العالى؛ ولربما ضم طغراء السلطان الى جبينه بحركة ظاهرها تواضع وباطنها استهزاء. بيد أنهُ كان في الواقع يفعل كما يشاء، ويتصرف كما يريد؛ ليس هنالك من يجرأ على معارضة أمره، ومنازعة مشيئته. ومع ذلك فقد أدى الى الباب العالى من الخدمات الجزيلة، مايفوق التقدير. فهو الذى أعاد الى الدولة البقاع المقدسة – مكة والمدينة؛ وهو الذي أخضع القبائل المفطورة على حب القتال في بلاد العرب، تلك التى لم يطأ أديم معاقلها الرملية غاز من قبل. وكفاه فخراً أن قبائل الوهابيين المخوفة البطش -- تلك الطائفة التى كانت تضطهد أهل السنة من المسلمين، والتى بسطت سلطانها الدينى على أنحاء

* دوق انجوين أحد افراد اسرة بربون التى كانت تحكم في فرنسا ونابلى. قتله نابليون بدعوى أنه كان يتآمر على اغتياله سنة ١٨٠٤ م

الجزيرة من البحر الأحمر الى الخليج الفارسى — لم تستطع أن تبدى مقاومة مذكورة فى وجه جنوده البواسل . وكان ذلك فى موقعة هزمت فيها جموع الوهابيين وجرح زعيمهم الأكبر سعود ؛ ثم استولى المصريون على عاصمة ملكه فى مجاهل نجد وأعملوا فيها يد النهب والتخريب، وأخذوا ابنه وخليفته عبد الله مع سائر أسرته أسراء ، وطافوا بهم شوارع القاهرة فى مواكب حافلة

ولقد أوشك ابراهيم باشا أكبر أولاد محمد على باشا أن يقضى على حركة اليونان فى حرب استقلالهم ، لولا تدخل أساطيل الحلفاء فى نوارين*

ويقال أن محمد على كان يرى فى بلاد سورية والمورة منفذين الى القسطنطينية ، وكانت مطامعه لا تخفى على أحد ، وشدّ ما أثارت نار الحقد والبغضاء فى صدر الخليفة محمود الثانى الذى حاول اغتيال الوالى غير مرة . ولقد جاءت الأيام محققة لمخاوفه فنشبت بينهما حرب عوان ، لولا تعرض الدول الأوربية لكانت نتيجتها فى الأرجح اعتلاء محمد على عرش قياصرة الشرق ، وتربع أبنائه اليوم فى دست الخلافة

ومن أهم أعمال محمد على الحربية وأجلها فائدة تحريره وادى النيل من غزوات البدو القاطنين على حدود الصحراء . فقد مضت دهور عدة وأولئك الأعراب لا يغبّون زيارة الوادى فى كل عام ، إذ ينقضّون عليه بخيلهم فيكتسحون سهوله الخصيبة ومزارعه المريعة . فلما أصلاهم محمد على نار حربه لم يجرأ أحد من زعمائهم ، حتى أشدهم أقداماً ، على مناجزة أشجع جندى

* نوارين خليج على شاطىء بلاد اليونان . وفي هذا المكان حدثت موقعة بحرية عظيمة بين أساطيل الحلفاء (انجلترة وفرنسا والروسيا) وأساطيل الترك ومحمد على . وفيها حطمت أساطيل الترك ومصر سنة ١٨٢٧ (راجع تاريخ مصر من الفتح العثمانى ص ١٦٩)

فى الاسلام يومئذ؛ وصار أعظم سلالة اسماعيل حمية وأشمهم أنفاً يحجم عن تحدى ذلك الفارس البطل الذى طالما مزق شمل الجيوش الجرارة، وأرغم أنوف الطغاة المارقين. وكذلك أصبحت خيرات مصر الوفيرة تجنى فى أمان وسلام تحت ظلال سيفه. على أن الوالى ما كان ليرضى من هؤلاء الأعراب بمجرد الكف مؤقتاً عن شن غاراتهم؛ بل كان يرى بدهائهِ وبعد نظره أن نظام جيشه البديع، الذى طالما أحرز بهِ النصر، لن يجدى نفعاً فى رد عدوات أولئك العربان المدربين على الكر والفر. فعمد الى افساد ما بين رؤساء القبائل البدوية من المحالفة والمعاهدة؛ ثم وثّق أواصر الود والمصادقة بينهُ وبين القبائل ذات السطوة والبأس، وحبب رؤساءها اليهِ بما كان يجزل لهم من العطايا، ويخلع عليهم من الخلع، ويقطعهم من الأراضى لمرعى أغنامهم. وكانوا يقابلون هذه المنح وتلك الأيادى بالوقوف على قدم الاستعداد للانقضاض بخيلهم ورجلهم على كل مغير يحاول الفتك بالبلاد. وكذلك ظل يعمل على المبدئ القديم «فرق تسد» حتى وفق فى آخر الأمر الى القضاء التام على سلطانهم

ولم يكن منهجه فى ادارة الشؤون الداخلية سليماً من النقائص. على أن ذلك ليس بعائبه، إذ كان الشعب المصرى نفسه لم يصل بعدُ الى تكوين فكرة سامية عن ماهية الحكومة. ولا يزال النظام الذى أنشأه فى حاجة الى التهذيب، مع كل ما أُدخل عليهِ من ضروب الاصلاح العدة، فانهُ كان فى أول أمره مملوءاً بالعيوب. ولكن الذى يفكر فى المصاعب التى تعترض الحاكم عند انشائه من العدم نظام حكومة جديدة فى بلاد كمصر،

ظلت على مدى أجيال متعاقبة مسرحاً فسيحاً للسلب والاعتداء والفوضى، لا يسعه الآ الاعتراف بالثناء العظيم على صاحب هذا العمل . والواقع أن العالم الاسلامى لم ير منذ انقراض الدولة العربية الزاهرة فى الأندلس حاكماً يضارع محمد على فى جليل أعماله، وجميل صفاته؛ فهو يماثل صلاح الدين فى عدله وتسامحه؛ ويفوق أشهر خلفاء بغداد فى خبرته وتنوره . وبالرغم مما كان فى نظام الشرطة من النقص، ومما كان يتحمله الأهلون من الضرائب الفادحة ، كان اسن شيخ فيهم لا يذكر وقتاً يدانى عصر محمد على فى استتباب الأمن واستفاضة الرخاء . ولا غرو فمنذ عهد «اماسيس» لم يتربع فى عرش مصر أمير قوى البأس كمحمد على يردع غيره عن الظلم والنهب، ويربأ بنفسه عن ارتكاب تلك الدنايا . ولا نزاع فى أنهُ صاحب الفضل الكبير واليد البيضاء على السياح والأجانب، فهو الذى مهد لهم سبيل الأمن فى مصر، حتى جعلها تضارع من هذا الوجه اقليم يوركشير، وتفضل كثيراً من أقاليم ارلنده . وأنهُ لمن السخافة والظلم أن ننصب ميزان المقارنة بين محمد على وبين أشهر مشاهير الساسة الأوربيين، فما مثلنا فى ذلك الأ كمثل الذى يفاضل بين بعض أصحاب المطابع الحديثة فى لندن وبين «ونكن دى ورد*» الذى كان عليه، قبل التمكن من اصدار الكتاب، أن يصنع بنفسه كل المعدات اللازمة من حروف ومطبعة وحبر وملاقط ومصاف

* من مشاهير المشتغلين بالطباعة فى أول عهدها عاش فى القرن السادس عشر وأقام مدة فى انجلترة وكان ألمانى الاصل

وانهُ لمن العجب العجاب أن يقوم فرد واحد بمثل ما قام بهِ محمد على من الأعمال الجليلة والمآثر الجمة . شيد المعامل ، وأقام دور الصناعة وبنى المدارس وجامعات الطب ، حيث تدرس مكتشفات هرفى وغيره على أيدى أساتذة من اكفاء الأوروبيين . يضاف الى ذلك ما أسسه من المستشفيات ، وما أنشأه من المدارس الحربية والبحرية

وكان محمد على يكافح فى تنفيذ أغراضه صعاباً تفوق حد المعتاد ؛ اذ كان يحارب ترهات رجال الدين وأشياع دولة الجهل . يدلك على ذلك ان تشريح الأجسام فى مدرسة الطب قوبل من رجال الدين بكل جفاء واستنكار وسخط بدعوى ان مبادئ الدين الحنيف تنافى ذلك تماماً ، وان العلوم الحديثة ما هى الا بدعة من بدع أهل الزيغ والكفر . لذلك كانت الأم تفضل بتر سبابة ولدها ، حتى يصبح عاجزاً عن الكتابة ، على ان تسمح بذهابه الى مدارس الباشا حيث يكسى ويطعم ويتعلم ويتقاضى مرتباً شهرياً

وكان من أعماله المرضية انهُ جمع كل ما كان متداولاً من العملة التركية الناقصة والمزيفة وكان فيها ضرر بليغ على التجارة لعدم ثبات قيمتها ؛ ومع ان ذلك العمل لم ينفذ على اكمل وجه ، فانه عاد على البلاد بالفوائد العميمة والمنافع الدائمة

ولم يكن محمد على من الأبطال الذين يسرحون فى ميادين الخيال ، بل كان رجلاً شجاعاً خشن الطبع نشيطاً مقداماً ، لا يتردد قط فى سلوك أى سبيل يوصله الى غايته المنشودة . ولقد كان لمخالطة الفرنسى

الآنف الذكر فى قولَه أثراً باقياً فى نفسه لم يمحه تعاقب الأيام والليالى. فكانت آراؤه وميوله فرنسية محضة، اذ كانت فى الغالب بعيدة المرمى واسعة النطاق مذكية لكبار الآمال، غير انها بعيدة التحقيق متعذرة المنال، وكان يظهر فى حديثه توقد القريحة الفرنسية ولوذعيتها. وكان شديد الغرام بمناقشة أى شخص يصادفه فى أعقد المسائل وأكثرها اشكالاً ويتبع رأيه بلا فحص ولا روية. وكثيرًا ما كان يندفع وراء نزوات خياله ويعمل بأى اقتراح مُعجب يعرض عليهِ، فلا غرو ان يؤديه ذلك الى ارتكاب أعظم الأغلاط. من ذلك انهُ ضحى ألوفاً كثيرة من النوبيين رغبة فى انشاء جيش جرار، ولا شك ان ذلك المشروع من أتعس المشروعات التى قام بها، اذ كان من جرائه نضوب معين الأهلين فى تلك البلاد الضئيلة السكان وحرمانها ألوفاً عدة من الأيدى العاملة التى هى فى حاجة اليها لزرع الأرض واستغلالها. وقد زاد الطين بلة سعيه لتحويل بلد من أوفر بلاد العالم خصباً الى قطر صناعى. وكان أول دافع حدا بهِ الى السير فى هذا المشروع الغريب ادخال زراعة القطن فى الديار المصرية. ولم يقتنع محمد على باستعصاء مشروعه الا بعد تجربة طويلة وانفاق المبالغ الباهظة وتناقص عدد السكان وعطب الآلات بفعل الرمال واجماع الرأى العام على استنكار المشروع، لأنهُ لم يكن كمعظم الأفراد الذين يشغفون بالمشاريع من غير فكر وروية، ثم يسارعون الى نبذها عند تعذر تحقيقها؛ بل كان يثابر بكل عزم وجلد على معالجة كل ما يرجو تحقيقه ويأمل

انجازه، اعتقاداً منهُ ان العار كل العار فى أن يقال عنهُ انهُ خاب فى ابراز مشروع من مشروعاته

وقد قام بانشاء معمل لتكرير السكر وآخر للتقطير تحت اشراف المستر «برين» ففشل المشروع اذ خرج السكر قذراً كريه الطعم كما خرج الروم مراً رديئاً وكذلك كان نصيب ما أنشأه من أنوال الحرير ومسابك الحديد

على ان محمد على قد أدّى الى البلاد خدمة جليلة وأضاف الى مواردها مورداً غزيراً بادخال زراعة القطن الذى كان من نوع فائق الجودة كما أسدى الى القطر نعمة جزيلة بادخال زراعة النيلج (النيلة) وكثير من الأصناف الأخرى التى جلبها أو وسّع نطاق زراعتها . ولو انه اكتفى بصنع الأقمشة المعتادة والمنسوجات الرخيصة لكان ذلك أعود عليه بالفائدة والربح؛ ولكن أفضل من هذا وذاك لو انه اقتنع بتصدير الخامات من غير أن يعالجها بالصناعة، فان ذلك كان يكون أنفع للبلاد وأربح له*

وكان لا يزال يندفع بنشاطه المتوقد الى ادخال كل ضرب من ضروب المستحدثات المبتسرة، ويتعرض بغير حق لنزع ملكية العقارات؛ وكانت الضرائب التى ضربها على الفلاحين فادحة للغاية . فاذا عجز بعضهم عن اداء الضريبة ألزم بالتخلى عن أرضه، وكان يُكره القرى على تزويده وتزويد كل رجال الادارة ما يحتاجون اليه من المؤن بنصف ثمن السوق، وهى

---

* نحن نعتقد ان المؤلف فى كلامه على المشروعات الصناعية لم ينصف محمد على حق الانصاف، واذا شاء القارىء أن يطلع على ما يفند هذه المزاعم ويدحض هذه الاقوال، وأن يقتنع ببعد نظر محمد على وصواب رأيه فى مشكلتنا الصناعية، فليراجع تقرير لجنة التجارة والصناعة

ضريبة قاسية لا تقع الا على فئة من السكان ، وكان من العدل أن يشترك في تحملها الجميع . ذلك الى أنه كان لا ينفك يبث العراقيل والعقبات في سبيل التجارة بكل نوع من أنواع التقييد الجائر؛ فمن هذا القبيل انه عمد الى احتكار كثير من المتاجر التي لو بقيت في يد أي انسان سواه لتضاعفت أرباحها عشرة أضعاف ؛ وتلك سياسة خرقاء لا تليق بحكومة رشيدة على الاطلاق . وكان يبيع بضائعه المحتكرة على طريق النسيئة لتجار من اليونان والأرمن والسوريين والافرنج ويخسر بذلك طبعاً مبالغ طائلة . وكان يحدد للصادرات أسعاراً باهظة، حتى أوشك أن يقضي على تلك التجارة قضاء مبرماً. وجملة القول ان سياسته في المسائل التجارية كانت مثالاً جلياً وبرهاناً ساطعاً على تلك الحقيقة المقررة ، وهي انه ليس بين الناس من هو أقصر نظراً وأقل صلاحية للاشتراع في المسائل التجارية من الذين يمارسون التجارة أنفسهم (لأن مصلحتهم الذاتية جديرة بأن تصرف أنظارهم عن المصلحة العامة)

وبينما هو يلحق الضرر بمصالح الشعب ويفقر بمشروعاته العقيمة موارد الخزانة اذا هو يسترسل مع جمحات هواه في معاملة التجار ويغدق عليهم من العطايا السفيهة ما لا يتفق مع الرأي والسداد . وكان شغوفاً بالدخول معهم في مضاربات خرقاء ، ويبذر في هذه السبيل مبالغ جسيمة . فكان كلما لج في الخسارة لجوا في الربح . وكان شأنه معهم أن يقرضهم المال والنصيحة في آن واحد فيأخذون المال ويعتذرون عن عدم رده بأنهم قد امتثلوا أمره وعملوا بنصيحته . واذا اتفق لأحد معارفه من التجار أن يشير

فى حضرته الى ما خسره بسبب اشتراكه مع الباشا فى عقد أو معاملة لم يتردد الوالى لحظة واحدة فى اعطائه ٤٠٠٠ أو ٥٠٠٠ جنيه تعويضاً له مما خسر . ولما كان هو المتصرف المطلق فى دخل الحكومة بأجمعه، وهو ماينا هز ٣,٠٠٠,٠٠٠ جنيه فى كل عام ، كان من الميسور له أن ينطلق مع هواه فى كل ما يزينه له من وجوه الاسراف ؛ ولكن الأمر أفضى بهِ الى الافلاس فمات وهو مستغرق بالدين

وكان غرامه بجمع الآلات من جميع الأنواع كولع بعض الناس بجمع طرائف الفنون . وكان قطيع الذئاب الملتفين بهِ من الافرنج مطلعين منهُ على موضع الضعف هذا ، فجعلوه لأنفسهم مورداً داراً من الربح ؛ فكانوا ، بمجرد شعورهم بظهور اختراع آلى جديد أيا كان ، يحرصون كل الحرص على اعلام الوالى بأمره ، فلا يتردد لحظة فى طلب نموذج من أرقى أصنافه . وهنالك تسنح الفرصة لعارض الاختراع على الباشا لاجتناء ما يشاء من المكسب غير المشروع ، فلا يتذمم من ربح ٢٠٠ أو ٣٠٠٪ من هذه الصفقة ؛ ولا عجب فان الوالى كان لا يهتم بتدقيق الحساب . وقد ذكر أحد المهندسين الانجليز على أثر زيارته دار الصنعة فى بولاق بعد موت محمد على بمدة وجيزة ان قيمة ماهنالك من ثمين الآلات المكدسة المهملة للصدأ والبلى لا تقل عن ١,٢٠٠,٠٠٠ جنيه . ولا أدل على عراقته فى الأخلاق الشرقية من مضاء همته فى متابعة آرائه ومن شغفه الشديد بانفاذ رغائبه . والواقع انهُ ما كان شىء ليفى بعناه إلاّ أن يكون فى حوزته على الدوام خاتم الملك ومصباح علاء الدين . ومن الأدلة على تأصل هذه الصفات فى طباعه حكاية

كان يرويها عن نفسه فى معرض السرور والانشراح

وذلك انه اتفق أن وقف ذات مرة فى طريقه من القاهرة الى الاسكندرية، وعزم على حفر ترعة. فأرسل الى رئيس مهندسى المديرية، فلما مثل بين يديه، بيّن له طول الترعة المطلوبة وعرضها وعمقها؛ ثم سأله عن الزمن الذى يستغرقه حفرها. فأخذ المهندس قلماً وورقة، وبعد الفراغ من حسابه أجاب قائلاً «اذا أعطانى الوالى أمراً لحاكم المركز بتقديم العمال اللازمين فيحتمل انجازها فى عام». فكان جواب الباشا على ذلك أن أمر خدمه بطرح المهندس أرضاً على ظهره وضربه ٢٠٠ عصا على أخمصى قدميه. ثم قال له «هاك أمراً بعدد ما يمكن أن تحتاج اليه من العمال؛ وانى قاصد الآن الوجه القبلى وسأعود فى ظرف أربعة أشهر، فاذا لم يتم حفر الترعة فى يوم ايابى كان جزاؤك عندى ٢٠٠ جلدة أخرى» وكان الباشا يختم حكايته وأسارير وجهه تفيض سروراً وانشراحاً. قائلاً «ولقد أنجز العمل فى وقته بكل دقة»

وكان محمد على قد طال احتقاره للعقبات واستخفافه بالصعاب وكثر تغلبه عليها واذلاله اياها، حتى أصبح يجد فى مغالبتها نوعاً من اللهو وضرباً من اللذة، ولربما يندفع الى القيام ببعض الأعمال، لا من باب الاهتمام به ولا لاقتناعه بأى فائدة منه، بل لأنه عمل شاق وحسب. فمن ذلك أنه طلب ذات مرة الى بعض معتمدى الدول الأوروبية أن يبتاع له باخرة تجرى فى النيل وراء الشلالات. فأشار المعتمد، وقد تولاه الدهش، الى انقطاع الخشب أو الفحم من تلك الجهات، والى عدم وجود بضائع أو ركاب

تنقل هناك ؛ مستنتجاً من ذلك ان مثل هذا المشروع جدير أن يكون عديم الجدوى عظيم الكلفة . وأشار المعتمد أيضاً الى صعوبة نقل المراجل والآلات فوق الصخور والدوامات؛ ولكن هذه الاعتراضات ما كانت لتثنى الوالى المستبد عن عزمه ؛ فأجاب ، وهو يشعر بتسلطه على ثلاثة ملايين نسمة « هوّن عليك فلا مانع من حملها قطعاً مفككة على ظهور الألوف من الفلاحين » واذ ذاك احتدمت بين الوالى والمعتمد مناقشة أفضت الى قول الأخير أن المشروع يكلف الباشا ١٠٠,٠٠٠ فرنك ؛ فاستشاط الوالى غضباً ، وفقد كل ما لديهِ من الصبر ، ووثب فجاءة من متكئه (وتلك كانت عادته حينما تهيج عواطفه) وأرعد وأبرق قائلاً : «سبحان الله ياسيدى ومايعنيك أنت اذا كان المشروع يكلفنى مليون جنيه»

وكانت القلوب من خشية عقابه على وجل شديد ، وان لم يكن من خلائقه القسوة الرعناء والغلظة المفرطة ؛ ومن المأثور عنه فى هذا الصدد حكاية تروى عن مصدر ثقة . وذلك ان احدى قبائل البدو كانت تملك بتقادم الزمن حق حراسة قصر شبرى ؛ فأقام الوالى ذات يوم إحدى تلك الولائم التى كان جد مغرم بإقامتها لنزلائه من الأوروبيين ؛ وبعد الانقضاء من الوليمة افتقدوا عدداً كبيراً من أوانى الفضة ، فنودى شيخ القبيلة ، إذ كان هو ، بمقتضى العرف ، المسؤول عن تصرف قبيلته . وبعد أن زج هذا الوجيه فى السجن وهدد بالقتل ان لم يبرز الأوانى المسروقة فى الحال ؛ طَلَبَ اطلاق سراحه بضع ساعات حتى يبحث عنها ، على أن تكون أملاكه وأسرته رهائن للبر بوعده . فخلوا سبيله وانطلق هو على الفور الى القاهرة

ميمماً أسواق الرقيق بها ، حيث اشترى اثنين من العبيد الطوال القامة الحسنى الشكل، الحديثى العهد بالقدوم من بلاد الحبشة أو سنار . وبعد أن استوثق من عجمتهما وعدم فهمهما حرفاً واحداً من العربية أو أى لغة سواها معروفة فى مصر ، عاد بهما الى خيامه ؛ ولم يلبث الشيخ أن اهتدى الى السارقين الحقيقيين . فأقنعهم برد الآنية ، وقطع لهم عهداً بأن لا يصيبهم أذى أذى ، وقد بر بوعده . ثم صرف الشيخ المجرمين الحقيقيين ونصح لهم قائلاً انه من السفه وسوء التدبير منازلة الأسد فى عرينه . ثم حمَّل العبدين الأوانى الفضية ، وأسرع الى شبرى ، ومثل بين يدى الوالى فأجزل له العطاء لما أبداه من المهارة فى القبض على المجرمين واسترجاع المسروقات. وفى هذه الأثناء وقف العبدان التعسان يتبسَّمان حاملين الأوانى البرّاقة ، وعندهما وطيد الأمل أن ينالا ما ناله سيدهما من تعطف الوالى وتفضله. فلما سأل الوالى عن المجرمين قدم له الشيخ ذينك العبدين البريئين فما راعهما الاَّ القاؤهما على أديم الأرض وجلد كل منهما خمسمائة جلدة على قدميه

ومثل هذه الأقاصيص أكثر من أن نأتى عليها فى هذه الرسالة . والواقع ان كل فرد كان يخشى ذلك الأسد ويسارع الى طاعته، بل ان بعض الناس كان يحبه ، وينظر اليه بعين الفخر والاخلاص : ذلك الشعور الذى يبعثهُ فى الصدور كل قوى مقدام القيت فى يده مقاليد الأمور . على أنه قد حان الوقت أن نختم هذا المقال

كان الوالى يصطاف فى قصره الجميل برأس التين ويجعل مشتاه فى قصر شبرا . ولم يكن يظهر على بلاطه تلك الأبهة والروعة والفخامة المألوفة

فى القاعات الجمة والسلالم الفخمة وأنواع الزخرف والتهاويل المعهودة فى أوربا. وكانت قصوره مرتبة على الطراز الفرنسى، تظهر عليها مسحة غريبة من مزيج الجلال والإسراف المعهودين فى الشرق وتضم حجرات أنيقة ذات أبواب وشبابيك عجيبة

وكان الوالى شغوفاً بظهوره فى الحفلات الرسمية بأبهة تزيد على أبهة الملوك. وكانت حاشيته مؤلفة من عدد عظيم بينهم أربعمائة مملوك مرتبون على أفخر نظام وأجمل تنسيق. وكان شديد المغالاة بنفسه عظيم الاعتداد بكرامته، لا ينزل قيد شعرة عن الاحترام الذى يراه واجباً له، حتى لقد كان يعامل أولاده بشدة وعظمة، يدلك على ذلك ان ابرهيم باشا أكبر أولاده كان يرى من المحتم عليه، وقد جاوز الخمسين، أن يمثل بين يدى والده بالخضوع والاحترام الواجبين على أى ضابط مصرى رفيع المقام، ثم يجلس على أقصى طرف المتكأ مظهراً بذلك منتهى التبجيل والتعظيم لوالده كما هى العادة فى الشرق. ورغما من أن رتبته كانت تبيح له التدخين بالشبك فى حضرة الوالى، فقد كان لا يجسر على رفعه الى فيه بل يضعه بين ركبتيه والخجل بادٍ على وجهه. وقد تبادر الى ظن البعض ان حرص الوالى على التحفظ بكرامته كان أمراً متكلفاً ومظهراً متصنعاً، ولكن الذين يعرفون بالتجربة وعورة الطريق الى المجد ويكونون قد تسلقوا ذلك المصعد الزلق جديرون أن لا يلاموا كثيراً اذا تغالوا فى تقدير المنزلة التى بلغوها والذروة التى تسنموها. فكثيراً ما يكون تبجيل الناس للرجل العظيم العزاء الوحيد الذى يسليه عما فقده من راحة الضمير وعز الطهارة

وكان محمد على، على اتصافه أبداً بجفاء الطبع والخشونة، يظهر أحياناً منتهى الرقة وحلاوة الشمائل؛ ولا سيما مع مندوبى الدول الأوربيــة الذين كان له شغف عظيم بالتفافهم حوله وتقربهم منه؛ ومما يروى فى هذا الصدد انه فى حفلة افتتاح القناطر الخيرية غفل القوم لبعض الأمر عن اعداد مقاعد لمندوبى الدول الأجنبيــة، فأبى محمد أن يجلس على مقعده حتى أصلحت الهفوة: وكان سنّه يومئذٍ يناهز الثمانين عاماً

اما فى حياته الداخلية فقد ظل اكثر دهره محتفظاً بتلك السذاجة التى طالما امتاز بها عظماء القوّاد، فكان مطعمه جشباً وشرابه لا يتجاوز الماء القراح. ومع غرامه بالنساء فقد كان بريئاً من التهتك والفجور. غير أنه مال فى أواخر أيامه الى البذخ والترف، وأسرف فى تعاطى النبيذ، شأن «رنزى*» و«نابليون». فكانت مائدته إذ ذاك لا تتميز عن موائد ملوك أوربا الأَبما كان يقدم أثناء الطعام من الشبكات المجوهرة. وكان القائم بإعداد طعامه طاهياً فرنسياً، وكانت القهوة تقدم له فى فناجين مرصعة بكريم الجواهر، فاذا فرغ من طعامه غمس أصابعه ولحيته فى ماء الورد

وكان لا يذوق النوم الأَغراراً ويستيقظ مبكراً كسائر أهل المشرق. وكان مولعاً بالألعاب الرياضية، وقد برع فى لعب البرجاس وركوب الخيل ومع قلة إلمامه بالقراءة والكتابة كان يستطيع أن يقرأ الرسائل الجلية

---

* من اكبر رجال ايطاليا الذين ظهروا فى القرن الرابع عشر. أفلح فى تأسيس حكومة هو على رأسها فى رومة بعد ان خلصها من الاضطرابات والفتن. ثم طمح الى توحيد ايطاليا فخاب وقتل سنة ١٣٥٤ م. راجع كتاب أوربا الحديثة جزء أول ص ٨٥ تأليف عمر الاسكندرى وسليم حسن

الخط ، ولكنه كان قلما يفعل ذلك حتى أصبح مع تمادى الإهمال يعانى فى القراءة مشقة وصعوبة . ومع طولة مقامه فى مصر كان لا يفهم العربية الاَّ قليلاً ولا يستطيع التحدث بها البتة ؛ غير أنهُ قد تعوَّد منذ شبابه درس أخلاق الرجال، وكان يرى فى نفسه الكفاءة والمقدرة لذلك. وكان موفقاً فى اختيار عماله . فالكلونيل «سيف»، الذى ارتقى فى خدمته الى رتبة باشا كان من اكفأ القوَّاد وأبرعهم ؛ كما كان كلوت بك من أعلم الأطباء وأحذقهم . ولكن الوالى كان شديد الشغف بالتدخل فى شؤون رعاياه وأحوالهم الخاصة . وكان فضلاً عن ذلك مفطوراً على حب الدسائس ، ومن عاداته أنهُ كان يعبث بعماله عبثاً خطراً مستهجناً ، فيوسمهم خزياً واذلالاً قبل أن يدخلهم فى حظيرة زلفاه ؛ وهى عادة سيئة طالما جرَّت الويل والثبور على أصحابها ؛ ومن المحال أن تؤدى الى نتائج حسنة . والواقع أنها من جميع الوجوه طريقة عوجاء وسياسة خرقاء ، قد تنتج عبيداً أرقاء — لا خدماً أمناء . فان الرجل الذى نُكب فى كرامته وابتز من شرفه جدير أن لا يكون شديد الحرص على مراعاة الواجب العام . وغير خليق بالذى لا يزال يكتوى بذكرى ما سيم من الخسف وما عانى من الاهتضام أن يكون لديهِ من الاخلاص والجرأة والتفانى ما يدعوه الى المخاطرة باغضاب سيده واثارة سخطه فى سبيل وقايته من بعض الأذى

ومن أظهر خصال محمد على انهُ كان ، خلافاً لعادة الشرقيين ، لا يأبهُ بالخزعبلات ولا يؤمن بالخرافات . ورغم ما يقال من أن حياته أفلتت مراراً من براثن الموت بالمعجزات (ولا مشاحة فى ذلك فان تاريخ حياته

حافل بالحوادث التي لا تكاد توجد الا في عالم الخيال) فانه لم يكن قط قدرياً. وقد قبض بنفسه على ساحرة دجالة وأماط اللثام عن مينها واحتيالها. أما حنانه الأبوى فكان ضئيلاً ضعيفاً وقد نسبت اليهِ حكاية سوداء تشير الى أنهُ صاحب اليد في القضاء على ابنهِ طوسون وأخرى تدل على عزمه الأكيد على قتل أحد أولاده جهاراً ولم يُمنع عن اقتراف ذلك الجرم الاَّ بعد جهد ولأى

وكان ، على شدة عارضته في القول ، ومضاء عزيمته في الفعل ، ومع شغفه بالتحدث عن نفسه ومفاخره ، وغرامه بذكر مساعيهِ ومآثره ، لا يزال سراً غامضاً ولغزاً مستغلقاً يفوت بدهائه أمكر الماكرين وأفطن الدهاة . وكان سريع الغضب ، لا يكبح له جماح اذا ثارت موجدته؛ ولكنهُ ربما تبلج أحياناً عن كرم فياض ، وعطف رؤوم . وصفوة القول انهُ كان، كسائر الناس ، قد فطر من تلك الطينة الجامعة لمتفاوت الصفات ومتناقض الخصال . وما غرضنا في هذا المقام أن نزيح بيد الخبث والقسوة ذلك القناع الذى أسدله الزمن على نقائصهِ وفضائلهِ ، ومعايبهِ ومحامدهِ . ولكن خير للانسان أن يتذكر من آن الى آخر ما في الطبيعة البشرية من ضروب التناقض ومظاهر التنافر ، وأن يتعوَّد النظر بلا دهش ولا اشمئزاز الى ما في أشد العقول وأقواها من مغامز الضعف ومواطن الخور

وكان محمد على رَبعة في الرجال ولكنهُ قد أوتى من قوة الجسم واكتناز العضلات وصلابة العود ما يؤهله لتحمل المتاعب والمشاق التي يكلفهُ إياها نفسه الطموح وعقله الجبار . وكان صلت الجبين واضحة ، عريض الجبهة بارزها ، كبير الحاجبين ناتئهما ، وكانت عادته أن يقرنهما في اكثر

أوقاته. أما عيناه فكانتا من ذلك اللون السنجابي الذى يمتاز بهِ عظماء رجال، وكانتا براقتين غائرتين فى محاجره، تتقد فيهما أحياناً نار وحشية غريبة تتطاير عنها ألحاظ غضاب لا يقوى على ملاقاتها الاَّ قليل من الناس؛ فاذا كان فى أوقات سروره ورضاه ألفيت عينيه تتلألآن بنظرات المجون والمكر والمزاح. ولربما امتزج الغضب والرضى فى لحظاته امتزاجاً غريباً حتى ليتعذر على المرء أن يعرف اى العاطفتين أغلب عليهِ وأظهر فيهِ. وكان مستقيم الأنف عريض المنخرين واسع الفم مهندمه. فاذا أضفت الى ما تقدم ذقناً عظيمة ولحية شمطاء ارتسم لك محياً قد انطبع عليهِ صدق العزيمة بطابع لا يبلى، وانتقش فيهِ مضاء الهمة بحروف لا تمحى

وقد قضى زمناً طويلاً من عمره وهو يتعمم بعمامة من فاخر الكشمير، ولكنهُ استعاض منها فى آخر أيامهِ بالطربوش. وكان يرتدى حلة مبطنة بنفيس الفرو، ويتمنطق بحزام من الكشمير يبرق فى جانبهِ نصاب خنجره المرصع بالجوهر، ثم يتمم لباسَهُ سروال كبير مسترسل وحذاء احمر. وكان يتلألأ على خنصر يمناه — تلك اليد الرخصة الصغيرة التى كانت أشبه بأكف المنعمات من ربات الخدور — درة يتيمة تخطف الأبصار بلمعانها

بلغ محمد على من العمر عتياً وهو يرفل فى ثوب الصحة ويتمتع بنسيم العافية. ولقد ظل محتفظاً بما أوتى من عجيب النشاط جسماً وعقلاً حتى قبيل الساعة الأخيرة، ولا بدع فانما يأكل الحديدَ صدأ الاهمال، لا حرارة الاستعمال. وكثيراً ما يكون العمر الطويل مع صحة الجسم وسلامة العقل ثمرة الكد وجائزة الاجتهاد. وكذلك مضى محمد على الى رحمة

ربه مكللاً بتاج الشيخوخة بعد أن كابد من الأهوال ما كابد ، ومتمعاً بنعمة السلام والسكينة بعد أن غامس من الحروب ما غامس

بيد ان السنة الأخيرة من حياته كانت مظلمة الأفق مكفهرة ، فقد اختل فيها ميزان عقله حتى فقد الصواب وارتد الى الطفولة ، وكان ذهنه فى أثناء تلك الفترة لا يزال شارداً جامحاً ولسانه لا ينفك يهذى ويهرف بالحروب والملاحم والثراء والجواهر . وكان يرى يومئذٍ من الأحلام ما يتضاءل فى جانبه كنوز الشرق وبدائعه، وطرائفه وعجائبه . ولربما زعم ان عماله اكتشفوا مناجم الماس فيها أعلى من الفحم أكواماً، والذهب فيها مكدس أكداساً . ولكن قريحته كانت ، حتى وقتئذٍ ، لا تعدم الايماض فى الأحايين خلال تلك الظلمة الموحشة ؛ فبينا تراه صامتاً واجماً يقضى الساعات الطوال وهو جالس على هذه الصفة ، إذ ينبته فجأة على ذكر اسم مألوف ، أو صهيل جواد ، أو رؤية حسام ؛ واذ ذاك يسنح بخاطره انهُ كان قائداً عظيماً يقود الجيوش الى ساحة الوغى

وقد رحل محمد على عن هذه الدار فى الثالث من أغسطس سنة ١٨٤٩

ان الذين ينظرون الى أعماله وأخلاقهِ بلا تحيُّز ولا تحامل لا يسعهم غير الاعجاب بذهنهِ الخصيب ، وبراعتهِ النادرة فى قيادة الشعوب . لقد افتتح لمصر عصراً جديداً ، واستقبل بها عهداً سعيداً ، ورفعها من هوة الضنك والشقاء الى بحبوحة النعيم والرخاء ؛ حتى أصبحت اليوم وليس بين سائر الأقطار الاسلامية ما يضارعها فى انتشار النور والعرفان أو فى حسن الحكومة والنظام . نحن لا ننكر أنهُ — كمعظم الذين يُجبلون على وجدانات

ثائرة وعواطف جموحة ، ويُبتلون بمحن قوية وفتن خلابة — قد ارتكب هفوات جسيمة . ولكن كل خبير بأحوال المشرق وتاريخه جدير أن يعترف بأن الاسلام لم يخرج الاَّ قليلاً ممن هم أفضل منه خلقاً ، وأكبر نفساً . ولا بدع فلئن كان اسم هذا البطل مخلداً فى صدر سجل الفاتحين ، فانه لكذلك مخلد فيما هو خير وأبقى : فى سجل المحسنين الى الأمم والعاملين على اسعاد الشعوب . ولئن وضعهُ التاريخ ، بصفته قائداً ، فى صف طارق وصلاح الدين فلا جرم أن ينيله ، بصفتِهِ مصلحاً ، قسطاً من ذلك الاحترام الذى يستشعره الانجليز لقائدهم كرمويل ، والذى يخالج أفئدة الفرنسيين تلقاء واضع القانون الجليل * ؟

﴿ انتهى بحمد الله وعونه ﴾

* نابليون بونابرت

١٩١٩/٢٠٠٠ ٦/١